أجاثا كريستي

مغامرات باركر بايْن

دار النجمة للنشر والتوزيع

مغامرات بارکر باین

أجاثا كريستي

مغامرات باركر باين

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

جندي يعاني الملل

أمام باب مكتب السيد باركر باين وقف الميجور ولبراهام يقرأ مرات ومرات ذلك الإعلان الذي نُشر في الجريدة صباح ذلك اليوم، وقد كان الإعلان بسيطاً حيث كُتب فيه: «هل أنت سعيد؟ إذا لم تكن كذلك فاستشِر باركر باين، ١٧ شارع ريتشموند».

دخل الميجور إلى المكتب فنظرت له فتاة تجلس أمام آلة كاتبة فقال لها بانفعال: هل يمكنني مقابلة السيد باين؟

فقامت وأشارت له أن يتبعها قائلة: تفضل، من هنا.

فتبعها إلى حيث كان السيد باين جالساً، واستقبله بابتسامة مرحّبة قائلاً: تفضل يا سيدي. كيف يمكنني مساعدتك؟

- أنا ولبراهام.

- هل أنت ميجور أم كولونيل؟

- بل ميجور، وقد عدتُ منذ وقت قريب من مهمة في إفريقيا الشرقية.

- أظنه مكاناً جميلاً. حسناً، أظن عودتك إلى أرض الوطن هي التي تتعبك لأن إفريقيا الشرقية مكان ساحر، أليس كذلك؟

- بلى، هو كذلك تماماً. كيف عرفت هذا؟!

- هذا عملي؛ لقد قضيت خمساً وثلاثين سنة من عمري في جمع الإحصائيات في إدارة حكومية، وحين أُحلت إلى التقاعد فكّرت في الاستفادة من خبرتي بشكل جديد. ببساطة يمكننا تقسيم التعاسة إلى خمسة أشكال فقط، وبمعرفة سبب الداء يمكننا معرفة الدواء. أنا أضع نفسي في موضع الطبيب المعالج فأقوم بتشخيص المرض ثم وصف العلاج المناسب له. هناك بالتأكيد حالات لا يصلح لها أي علاج، وهنا أقول بصراحة إنه لا أمل لصاحبها في الشفاء، ولكنني لا أقبل إلاّ الحالات التي أكون متأكداً من قدرتي على علاجها.

- ما تقوله صحيح تماماً يا سيدي. ما يضايقني حقاً هو الملل، الملل والثرثرة التافهة التي لا نهاية لها طوال المساء في القرية. ماذا يمكنني أن أفعل أمام شيء كهذا بالله عليك؟ أنا أملك بعض المال إلى جانب معاشي التقاعدي، بخلاف كوخ جميل في كوبهام، ولكنني لا أمتلك القدرة على الصيد والقنص، كما أنني لست متزوجاً. جيراني طيبون ولكن عقولهم مقصورة على ما يحيط بهم فقط.

- تقصد أن حياتك مملة؟

- نعم، إلى حدّ بغيض.

- في حين أنك تحب الإثارة والمغامرة؟

- أجل، ولا شيء من ذلك حولي.

نظر السيد باين إليه بجد وقال: بل أنت على خطأ يا سيدي؛ هنا في لندن الكثير من الأخطار والإثارة، ولكنك لا تدري أين تجدها. الحياة هنا هادئة من سطحها الخارجي، ولكن لها جانباً آخَر مليئاً بالأخطار والمغامرة.

فنظر إليه الميجور ولبراهام متمعّناً. كان شيء ما في لهجة وطريقة السيد باين يدعو إلى الثقة به. كان ضخماً أصلع ذا ملامح قوية أرستقراطية ويضع نظارات طبية سميكة. كان يبدو كمن يمكن الاعتماد عليهم في المصاعب والشدائد.

قال السيد باين بهدوء: ولكن عليك أن تكون حذراً؛ فهناك الكثير من الخطر في هذا الأمر.

فقال الميجور بسعادة بادية: هذا ما أحتاجه تماماً. ثم سأله: وماذا عن أجرك في هذه العملية؟

- خمسون جنيهاً يتمّ دفعها مقدَّماً، وإذا شعرت في الشهر الأول أنك مازلت على نفس حالتك من الملل فسوف أعيد إليك مالك.

- يبدو هذا معقولاً. سأحرر لك شيكاً بالمبلغ الآن.

وتبادلا شيكاً وإيصالاً بالمبلغ، ثم ضغط السيد باين زراً فوق مكتبه وهو يقول لعميله: نحن الآن في الواحدة ظهراً، وسأطلب منك الآن مرافقة فتاة إلى الغداء.

وفي نفس اللحظة فُتح باب المكتب ودخلت فتاة قال لها السيد باين: عزيزتي مادلين، أقدم إليك الميجور ولبراهام،

وهو يدعوك الآن إلى الغداء.

نظر ولبراهام في وجه مادلين مدهوشاً من جمالها. كانت سمراء البشرة طويلة القامة لها عينان أخّاذتان ورموش طويلة ووجه ساحر، وكانت ذات قوام رشيق. قال الميجور ولبراهام: يا إلهي، كم أنا سعيد!

قدمها له السيد باين قائلاً: أقدم لك الآنسة دي سارا.

فقالت الفتاة بصوت رقيق: شكراً على دعوتك الكريمة لي للغداء يا سيدي.

قال السيد باين للميجور ولبراهام: اترك لي عنوانك، وسوف تصلك تعليمات منّي غداً صباحاً.

ثم غادر الميجور ولبراهام المكتب ومعه مادلين الفاتنة.

* * *

عادت مادلين إلى المكتب في الثالثة ظهراً فسأله السيد باين عمّا حدث فقالت: إنه يشك فيّ ويظنّني فتاة لَعوباً.

- هذا متوقَّع. هل نفذتِ التعليمات؟

- نعم، لقد تكلمنا معاً عن الموجودين في المطعم، كما عرفت أنه يفضل المرأة الشقراء زرقاء العينين النحيفة غير مفرطة الطول.

- لا أظن هذا عسيراً... فلنفحص القوائم في الملف.

ثم بدأ يبحث في الملف عن فتاة بهذه المواصفات حتى توقف عند إحداهن فقال: أظن فريدا كلينغ يمكنها أداء المهمة. فلنتصل هاتفياً بالسيدة أوليفر بشأن فريدا.

* * *

في اليوم التالي وصلت إلى الميجور ولبراهام مذكرة بريدية كان فيها: «في الساعة الحادية عشرة من يوم الإثنين القادم اذهب إلى إيغلمونت، شارع فرايزلين، حيّ هامستيد، واسأل عن السيد جونز. أخبره أنك من طرف شركة جوافا للملاحة».

قام الميجور بتنفيذ ما وصله من تعليمات، وفي يوم الإثنين الذي كان يوافق عطلة رسمية ذهب إلى ذلك العنوان. لكنه قبل انصرافه شعر أن كل الناس في العالَم كانوا يتجهون إلى هامستيد في نفس الوقت مما أصابه بالحنق والضيق، كما وجد صعوبة بالغة في الوصول إلى البيت الذي يريده في فرايزلين (زقاق مسدود مهجور مليء بالركام وعلى جانبيه بيوت كبيرة المساحة حالتها يُرثى لها). مضى يحاول بصعوبة قراءة الأسماء المكتوبة على البيوت والتي كادت تنمحي مع الزمن. وفجأة سمع صوتاً جعله يتسمر في مكانه، صوتاً رقيقاً ضعيفاً متحشرجاً نصف مختنق، وكان يأتيه من مكان قريب. أرهف سمعه فسمع الصوت مرة أخرى وميز في حروفه كلمة «النجدة»!

حدد الميجور مصدر الصوت، وبعد تردد قصير جداً

دفع باب أحد المنازل منطلقاً نحو مصدر الصوت، وفي ركن حديقة المنزل المهمَلة وجد فتاة تقاوم رجلَين ضخمَي الجثة يحاول أحدهما تكميم فمها بيده، ولم ينتبه أحدهما إلى اقتراب ولبراهام منهما لانهماكهما في المعركة مع الفتاة، ولم يشعرا بوجوده إلاّ حين هوى بقبضته على فك الذي كان يكمّمها فألقاه أرضاً، في حين استدار الآخَر نحو ولبراهام وقد أخذته المفاجأة. وقد كان ولبراهام مستعداً له فهوى على فكه بقبضته ليطرحه هو الآخَر أرضاً، ثم استدار نحو الأول. وكان من الواضح أنهما أدركا أنهما لا قِبَل لهما به فاندفعا يجريان نحو باب الحديقة فراراً، وبدأ يعدو وراءهما لكنه ما لبث أن توقف والتفت نحو الفتاة التي كانت تستند إلى شجرة وهي تقول له باكية: شكراً، شكراً جزيلاً... يا له من أمر مروّع!

نظر للمرة الأولى إلى وجه تلك الفتاة، فوجدها في نحو العشرين من عمرها شقراء الشعر زرقاء العينين. كانت شاحبة الوجه، ولكنها كانت رائعة الجمال. قالت: لست أدري ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم تكن قد حضرت!

فقال يطمئنها: لا عليك؛ لقد أصبح كل شيء على ما يرام. ولكن من الأفضل لك الانصراف فربما عاد هذان الوغدان.

- لا أظنهما يجرآن على العودة بعد ما لقياه على يديك.

كانت تنظر إليه بإعجاب واضح، فبدا عليه الخجل وهو

يقول: هذا شيء بسيط يحدث يومياً... فتاة جميلة يضايقها رجال أوغاد. أيمكنك السَير؟ فلتتأبّطي ذراعي.

- أنا بخير الآن.

وبالرغم من أنها بخير إلاّ أنها تأبّطت ذراعه. كان يبدو عليها بعض الخوف والترقب وهي تنظر نحو المنزل الذي هوجمت في حديقته. قال لها ولبراهام: من الواضح أن هذا المنزل مهجور تماماً.

- أجل... إنه خال تماماً.

فألقى الميجور نظرة على المنزل ونوافذه المغلَقة ومنظره الكئيب في حين قالت الفتاة: وبالرغم من ذلك فهو البيت الذي كنت أقصده.

- انسي هذا ولنذهب إلى مقهى لنشرب قدحين من القهوة.

ولم تمضِ دقائق حتى كانت سيارة أجرة تنطلق بهما نحو المقهى في حِين كانا يتعارفان، وبعد دقائق كانا في المقهى يشربان القهوة وهي تنظر نظرة شكر إلى منقذها. قالت له: أشعر أنني في حلم أو كابوس... آه، كم أكره المغامرات!

- قصّي عليّ كيف حدث هذا.

- عليّ إذن أن أكثر من الحديث عن نفسي.

- وأنا أتوق إلى ذلك.

– أنا فتاة يتيمة، كان والدي قبطان سفينة وقد مات وأنا بعدُ في الثامنة، وماتت أمي منذ ثلاث سنوات. وأنا الآن موظّفة في شركة الغاز في المدينة. عند عودتي إلى منزلي في الأسبوع الماضي فوجئت بشخص ينتظرني، قال لي إنه محام واسمه ريد من مدينة ملبورن. كان مهذّباً جداً وسألني عن أسرتي وأخبرني أنه يعرف أبي منذ زمن بعيد وأنه كان يقوم ببعض الأعمال القانونية لأبي. وبعد ذلك أخبرني بالسبب وراء زيارته لي.

ثم التقطت نفساً وقالت مكملة: قال إنني من الممكن أن أحصل على بعض المال نتيجة بعض المعاملات المالية التي كان أبي يقوم بها قبل وفاته. دهشت لذلك، ولكنه قال لي إنه يتوقع ألاّ أكون على علم بهذا الأمر لأنه كان يعلم أن أبي لم يكن يهتم بالمعاملات المالية اهتماماً شديداً. لكن الأمور تطورت بشكل غير متوقع، وأخبرني أنني لن أحصل على مالي إلا إذا كانت في حوزتي بعض الأوراق التي هي جزء من تركة والدي. وقد سألني إن كنت أحتفظ بتلك الأوراق، فأخبرته أن والدتي وضعت كل ما يخص أبي في صندوق كبير، وأخبرته أنني نظرت في محتويات الصندوق ولكنني لم أجد فيه ما يثير الاهتمام، فأخبرني أنه ربما كان فيها شيء هام لا يثير اهتمامي أنا؛ فأحضرت له تلك الأوراق التي كانت في الصندوق فأخذها ليقرأها بتفحّص، ثم أخبرني أنه سيتصل بي إذا حدث شيء جديد.

وصمتت ريثما ترتشف رشفة من قدحها ثم عادت تقول:

ويوم السبت الماضي وصلني خطاب منه يطلب منّي فيه الحضور إلى منزله للمناقشة في الموضوع، وأعطاني العنوان، وهو ذلك المنزل الذي وجدتني فيه. كان من المفترض أن أقابله في الحادية عشرة إلاّ الربع صباح اليوم ولكنني تأخرت كثيراً حتى اهتديت إلى المنزل، ولم أكَد أدخله حتى فوجئت بهذين الشخصين يهاجمانني. كمّم أحدهما فمي، ولكنني خلّصت رأسي من قبضته لحظة واحدة استطعت خلالها الصراخ وطلب النجدة. ولولا أنك سمعتَني لَكنت قد...

ولم تكمل جملتها، ولكن عينيها كانتا تقولان الكثير والكثير، فقال لها: كم يسعدني أنني كنت أمر في ذلك الوقت، وكم أتمنى أن أمسك بهذين الحقيرين! أأنت على يقين من أنك لم تريهما من قبل؟

- نعم، ولكن ما معنى مهاجمتهما لي؟

- أظن هناك شخصاً يريد شيئاً من أوراق والدك، ولكنه لم يعثر على ما يريده بعد أن خدعك بقصة واهية.

- أظنك على حق؛ فعندما عدت إلى منزلي يوم السبت أحسست أن شخصاً ما قد عبث بشقتي، وقد ظننته صاحبة المنزل الفضولية، أما والحال هكذا...

- أظن أن ما قلته هو الحقيقة وأن شخصاً دخل غرفتك وفتشها ولم يجد ما يريده، وقد اعتقد أنك تعرفين مكان هذه الأوراق وتعرفين أهميتها ولهذا استدرجك إلى ذلك المكان.

- يا إلهي! وماذا يمكن أن يكون في مثل هذه الأوراق؟

- لست أدري حتى الآن، ولكن من الواضح أنها تهمه جداً.

- هذا الأمر يصعب تصديقه.

- بل يمكن، خاصة وأن والدك كان بحاراً يسافر إلى الكثير من الأماكن، وربما وجد شيئاً ثميناً لم يكن يدري قيمته حين وجده. أظنك لا تودين إبلاغ الشرطة فلن يفيد ذلك في شيء، بل ربما يتسبب لك في الكثير من المشكلات.

- أنت على حق تماماً.

- حسناً، فلنذهب إلى مكان نتناول فيه غداءنا ثم نذهب إلى منزلك للبحث عن تلك الأوراق. أنا على يقين من وجودها هناك في مكان ما.

- أليس من المحتمَل أن يكون أبي قد تخلّص منها؟

- ولكن هناك من لا يقنع بهذا التفسير.

- أتظن مثل هذه الأوراق يمكن أن تقودنا إلى كنز مخبوء؟

- يا إلهي! هذا محتمَل، ولكن دعينا نتناول غداءنا أولاً.

* * *

بعد أن تناولا الغداء الشهيّ وقصّ ولبراهام عليها بعض تفصيلات حياته اتجها إلى منزلها في سيارة أجرة. كانت تعيش قرب ضاحية نوتنغ هيل غيت، وعندما وصلا تحدثت مع صاحبة المنزل بعض الوقت ثم صعدت معه إلى الطابق الثاني حيث شقتها الصغيرة ثم قالت له: يبدو أن ما قلتَه صحيح؛ لقد جاء شخص صباح السبت وأخبر صاحبة المنزل أن هناك خللا في توصيل أسلاك الكهرباء في شقتي، وقد دخل الشقة وبقي فيها لبعض الوقت.

- أريني صندوق والدك.

أحضرت له الصندوق قائلة: الصندوق فارغ كما ترى، كما أنني متأكدة من عدم وجود أية أوراق في أي مكان آخَر. كانت أمي تحفظ جميع الأوراق في هذا الصندوق.

فقام ولبراهام بفحص الصندوق بدقة، ثم قال بدهشة: أرى شقّاً دقيقاً في بطانة الصندوق!

ثم مدّ يده برفق في ذلك الشق وهو يتحسس داخله، وفجأة اصطدمت يده بورقة، فأخرجها بحرص شديد، فوجدها ورقة بالية مطوية عدة مرات، ففردها برفق على منضدة في حين راقبته فريدا باهتمام ودهشة، ثم لم تلبث أن قالت بيأس: ليس فيها سوى رموز غريبة!

- إنها مكتوبة باللغة السواحلية، لغة من شرق إفريقيا.

- وهل يمكنك قراءتها؟

- أعتقد ذلك.

قالها وهو يقترب من الضوء المنبعث من خلال النافذة، فقالت تسأله: ماذا فيها؟

فقال بعد هنيهة: لقد وجدت كنزك المخبوء.

فقالت بانفعال: كنز! حقاً؟! أهو ذهب وجواهر...؟

- بل هو مكان يوجد فيه الكثير من العاج.

- ماذا؟ عاج؟!

- نعم، لقد خالف أحد الصيادين القانون وتجاوز في صيده العدد المسموح به من الأفيال، وحين اكتشف أن السلطات تتعقبه أخفى العاج في مكان ما. كمية كبيرة جداً من العاج، وفي هذه الورقة يتحدد موقعها تقريبياً. علينا أن نذهب للبحث عنه.

- وهل تظن هذا يجلب الكثير من المال؟

- هذا يساوي ثروة لا بأس بها.

- كيف تظن أبي حصل على هذه الورقة؟

- ربما كان صديقاً لأبيك وحضرته الوفاة فكتبها باللغة السواحلية ليبعدها عن المتطفلين ثم أعطاها لأبيك قبل موته. ومن المرجح أن أباك لم يهتم بالورقة لأنه لا يعرف اللغة السواحلية. هذا مجرد تخمين، ولكنني أظنه قريباً من الصواب.

- يا إلهي! هذا مثير جداً.

- من الأفضل الآن ألاّ نترك هذه الورقة هنا فمن الممكن أن يعودوا للبحث عنها. هل يمكن أن أحتفظ بها معي؟

- أنا أثق بك، كما أنك بهذا تعرض نفسك للخطر بحملك هذه الورقة.

- لا تخافي عليّ؛ أنا شديد البأس.

ثم حفظ الورقة في محفظته وقال لها: سأزورك مساء الغد حتى أكون قد فكرت في خطة وقمت ببعض البحث في الخرائط عن هذا المكان. متى تعودين من عملك؟

- في نحو السادسة والنصف.

- حسناً، اسمحي لي أن أدعوك للعشاء غداً احتفالاً بهذه المناسبة، ولنعقد اجتماعاً لنتفق فيه على الخطة. إلى اللقاء.

* * *

في الموعد المحدد كان الميجور ولبراهام يدق الجرس الخارجي للمنزل، فخرجت خادمة وأخبرته أن الآنسة كلينغ قد خرجت، فأخبرها أنه سيعود مرة ثانية بعد برهة ثم مضى يتمشى لعلّه يقابلها وهي عائدة. ولكن الساعة أصبحت السابعة والربع وهي لم تعد بعد، فعاد إلى المنزل وأخبر الخادمة أنه على موعد معها، فسألته إن كان هو الميجور ولبراهام، فلمّا أجابها بالإيجاب قالت له إن الآنسة كلينغ تركت له

رسالة، وأحضرت له الرسالة ففضّها على الفور وقرأ فيها: «عزيزي ولبراهام، حدث أمر لا أستطع الكتابة عنه الآن. أرجو حضورك بعد قراءة هذه الرسالة إلى هوايت فرايرز. المخلصة: فريدا كلينغ».

فكر ولبراهام برهة بعد قراءة الرسالة، ثم أخرج من جيبه دون وعي خطاباً كان قد كتب عليه عنوان الحائك الخاص لملابسه وسأل الخادمة إن كان لديها طابع بريد، فلما أحضرته له أعطاها ثمنه ثم لصقه على المظروف وألقاه في صندوق البريد، ثم اتجه نحو محطة قطار الأنفاق. كان القلق يعصف به وهو يفكر في السبب الذي جعل فريدا تذهب إلى المكان الذي هوجمَت فيه! هل استطاع عدوها استدراجها إلى ذلك المكان مرة ثانية؟

كانت الساعة قد اقتربت من السابعة والنصف وهو يفكر في أن طبيعة الكتابة لم تكن مماثلة لفريدا، كما أنها لم تلمح إلى أي شيء في الرسالة.

وحين أشرفت الساعة على الثامنة كان قد وصل إلى حي فرايرزلين الذي كان مظلماً خالياً من المارة، فدفع باب حديقة المنزل ببطء وحذر دون إحداث صوت، ثم توقف فجأة وهو ينظر إلى بصيص من الضوء خارج من إحدى النوافذ، ثم اختفى فجأة كما ظهر. كان هذا يشير إلى أن هناك شخصاً في المنزل بالتأكيد، فنظر حوله بحذر وهو يدور حول المنزل إلى أن وجد نافذة مفتوحة في الدور السفليّ، فأخرج من جيبه

مصباحاً يدوياً كان قد اشتراه في طريقه، ونظر في الغرفة ليتأكد أنها خالية ثم دخلها من خلال النافذة، ثم عبر منها إلى المطبخ الذي كان خالياً بدوره. وكان المطبخ يؤدي إلى مقدمة المنزل، فتوقف هنيهة ليتأكد من عدم وجود أصوات في المكان، ثم خرج من المطبخ متسللاً فرأى بابَين عن يمينه وعن يساره، فاختار الأيمن وفتحه ببطء ثم دلف إلى الداخل وهو يضيء مصباحه وينظر في أنحاء الغرفة. لم يكن فيها أثاث إطلاقاً.

وفجأة شعر بحركة خلفه فاستدار مسرعاً نحو مصدرها، ولكنه كان قد تأخر، فقد هوى شيء صلب على مؤخرة رأسه بقوة فسقط فاقداً الوعي...

بعد مضيّ وقت لم يستطِع ولبراهام تحديده تماماً بدأ يفيق ويفتح عينيه، وحين حاول أن يتحرك اكتشف أنه مقيَّد بالحبال بشدة. كان في سقف الحجرة مصباح صغير باهت فاكتشف أنه في قبو صغير، وفجأة وقعت عيناه على فريدا التي كانت مقيَّدة بالقرب منه مغمضة العينين خافتة الأنفاس وقد بدأت تستعيد وعيها ببطء وهو يحدّق إليها بجزع.

حين وقعت نظراتها عليها قالت بلهفة: ولبراهام! ماذا حدث؟!

- لقد سقطتُ في الفخ بكل غباء. هل أرسلت لي رسالة تطلبين فيها منّي الحضور إلى هنا؟

فقالت بدهشة: ماذا؟! بل أنت الذي أرسلت لي للحضور إلى هنا بدلاً من موعدنا في المكتب.

- يا إلهي! نفس الطريقة التي استخدموها معي.

- معنى هذا أن هدفهم هو...

- هو ما تفكرين فيه، الورقة. وأظنهم كان يتتبعوننا أمس.

- وهل تمكنوا من الحصول عليها؟

فهزّ كتفيه قائلاً: لا يمكنني الحكم ويداي مقيَّدتان.

وفجأة انطلق صوت لا يعرفان مصدره يقول: بل لقد حصلت عليها، وشكراً جزيلاً لكما.

فزعا للصوت في حين قالت فريدا بارتجاف: السيد ريد!

فقال الصوت: هذا أحد أسمائي العديدة، ومن المؤسف أن تزجّا بنفسيكما في هذا الأمر، فأنا لا أسمح بحدوث هذا في خططي، واكتشافكما المنزل أمر لا يمكنني إهماله أو التغاضي عنه لأنني أدير جميع أعمالي من هذا المنزل. من الممكن ألاّ تكونا قد أبلغتما الشرطة حتى الآن ولكن من المكن أن تبلّغا فيما بعد، وأنا لا أثق بكما. من المؤسف أن أخبركما أنكما لن تغادرا المنزل إلاّ إلى عالَم الموتى. لا تقلقا، فأنا لا أحب سفك الدماء. لن تكون هناك دماء وطريقتي لن تسبب لكما ألماً. فلأترككما الآن، وداعاً.

فقال ولبراهام صارخاً: أنت، فلتفعل بي ما تشاء ولكن لا شأن لهذه الفتاة بالأمر، فلتتركها تذهب.

ولكنه لم يسمع ردّاً من صاحب الصوت، وفجأة صرخت فريدا: ربّاه، الماء!

نظر إلى البقعة التي كانت تنظر إليها فوجد ثقباً صغيراً في أحد الجدران قريباً من السقف ينساب منه الماء ليغمر أرضية الغرفة ويزداد ارتفاعه فيها ببطء، فصرخت فريدا: إنهم يريدون إغراقنا!

كانت حبات العرق تنساب على جبين ولبراهام وهو يفكّر في ذلك الموقف العصيب، وفجأة قال: لا، ليست هذه هي النهاية. هيّا يا عزيزتي، فلنصرخ في طلب النجدة ولا بدّ أن يسمعنا أحد، والماء أمامه وقت طويل حتى يغمر الغرفة.

وبقيا يصرخان برهة، ولكن كان من الواضح أن صراخهما لا يصل لأحد على الإطلاق، فرجّح ولبراهام أن الجدران كانت عازلة للصوت.

قالت الفتاة بيأس: هذا كله بسببي، فأنا أقحمتك في هذا الأمر.

- لا تهتمي بي يا عزيزتي، كل قلقي عليك أنت. أنا أتعرض لمثل هذه المآزق طوال عمري وسوف أجد الحل. ما زال أمامنا الوقت الكافي.

- يا لك من رجل مدهش! أنا لم أعرف رجلاً مثلك إلاّ في الروايات.

- لا تهوّلي الأمر يا عزيزتي. لنحاول فك هذه القيود.

ثم أخذ يحرك ساعديه حتى بدأ القيد يلين حول ساعديه، فأخذ يرفع يديه ويحني رأسه حتى استطاع إمساك العقدة بأسنانه ثم فكّها، واستخدم يديه في فك بقية قيوده ثم فك قيود فريدا، وبعد ذلك انطلق ليضرب الباب بكتفيه القويتين ضربات متتالية عنيفة حتى انفصلت مفصلاته عن الحائط. كان وراء الباب درَج طويل يليه باب سميك مفتوح، فنظر ولبراهام من خلاله بحذر، وحين اطمأن إلى خلوّ المكان خرجا منه إلى المطبخ ثم إلى الحديقة، ومنها إلى خارج المنزل.

أطلقت فريدا تنهيدة قوية وقالت: لم أتعرض في حياتي لمثل هذا الموقف العصيب!

فأمسكها من كتفيها وهو ينظر في عينيها ويقول: ولكن كنت شجاعة يا حبيبتي.

ثم اقترب منها وهو يقول: فريدا، هل... أعني... فريدا، أنا أحبك، فهل تقبلين الزواج بي؟

وكان الصمت بينهما أبلغ من الكلام برهة قال بعدها: كما أننا مازلنا نحتفظ بسرّ كنز العاج.

- ألم يحصلوا عليه؟!

فأطلق ضحكة جذلة وهو يقول: بالتأكيد لم يحصلوا عليه؛ لقد تركت لهم نسخة مقلَّدة من الورقة قبل ذهابي إلى منزلك هذا المساء وأرسلت الورقة الحقيقية إلى حائك ملابسي الخاص.

وصمت لحظة ثم قال: أقترح أن نمضي شهر العسل في شرق إفريقيا بحثاً عن كنز العاج.

* * *

ترك السيد باين مكتبه ليصعد طابقَين إلى غرفة الكاتبة الشهيرة السيدة أوليفر فطرق بابها ودخل. كانت تجلس إلى مكتبها الذي تتناثر فوقه أوراق مبعثَرة وآلة كاتبة وغيرها من الأشياء، فقال لها السيد باين: القصة جميلة حقاً يا سيدة أوليفر.

- هل سارت الأمور على ما يرام؟

- نعم، ولكن هل يمكننا في المستقبل استخدام شيء آخَر بدلاً من القبو والماء؟ لقد أصبح هذا الأمر شائعاً.

- بالطبع لا؛ لقد اعتاد الناس مثل هذه الأمور: الماء في القبو والغاز السام وغيرها... ومعرفتهم بهذه الأشياء تزيدهم إثارة في أثناء قراءتهم لهذه الأحداث. الناس بطبيعتهم محافظون، وهم يحبون ما اعتادوه.

- حسناً، أنتِ أكثر منّي خبرة بهذه الأمور. كم كانت التكاليف؟

فالتقطت ورقة من فوق المكتب وقالت: كانت قليلة نسبياً؛ برسي وجيري اللذان هاجما الفتاة طلبا مبلغاً صغيراً، وهناك لوريمر الممثل الذي أدى دور السيد ريد مقابل خمسة جنيهات، والصوت الذي انطلق في القبو كان مسجَّلاً.

- يا لهذا المنزل المدهش! لقد اشتريتُه بثمن بخس، وقد استخدمته أكثر من عشر مرات في حالات تشبه هذه الحالة.

- هناك شيء نسيته، لقد أخذ جوني خمسة شلنات.

- ومَن هو جوني؟

- الفتى الذي قام بصبّ الماء في القبو.

فتذكر شيئاً وقال لها: بالمناسبة، أين تعلّمت اللغة السواحلية يا سيدة أوليفر؟

- لم أتعلمها قَطّ، لقد كُتبت الورقة في أحد مكاتب الاستعلامات. كل ما يقلقني أنهما لن يجدا أيّ مخبأ للعاج في شرق إفريقيا.

- لا يمكنهما الحصول على كل شيء مرة واحدة، يكفيهما شهر العسل.

* * *

جلست السيدة ولبراهام باسترخاء على كرسي فوق سطح السفينة المتجهة إلى سواحل شرق إفريقيا، في حين انهمك زوجها في كتابة خطاب، وسألها بعد هنيهة: ما تاريخ اليوم يا حبيبتي؟

- إنه السادس عشر.

- ماذا؟ حقاً؟!

- ما الأمر يا حبيبي؟

- لا شيء، لقد تذكرت شخصاً ما.

ولم يكن يمكن أن يبوح لها بما في نفسه مهما كانت سعادتهما معاً. فكّر في نفسه قائلاً: كان عليّ الذهاب إلى مكتب ذلك المخبر الخاص لاستعادة نقودي، ولكن أظنني أنا الذي أخلفت الاتفاق بعدم مقابلتي للرجل الذي طلب منّي مقابلته. لكن لولا ذهابي إلى ذلك المكان لما قابلت فريدا ولا سمعت استغاثتها. فالنقود من حقه إذن، ولو بطريق غير مباشر.

وكانت السيدة ولبراهام تفكر هي الأخرى في نفسها قائلة: كان غباء منّي تصديق ذلك الإعلان ودفع ثلاثة جنيهات كاملة لذلك الرجل المدعوّ باين؛ فهو لم يفعل شيئاً مقابلها، ولو أنني كنت أعرف ما سيحدث لما ذهبت إليه أصلاً. لكن يكفيني أن تعرفت على زوجي وحبيبي ولبراهام.

قالتها في نفسها ثم نظرت نحو زوجها وعلى وجهها ابتسامة ملؤها الحب والسعادة.

* * *

قصة كاتب صغير

نظر السيد باين إلى زائره بتمعّن. كان رجلاً قصيراً قوياً في منتصف العقد الخامس من عمره، وكان يبدو حائراً مستغرقاً في التفكير وهو ينظر إلى السيد باين متلهّفاً. قال الزائر: لقد قرأت إعلانك في الجريدة.

- ما مشكلتك يا سيد روبرتس؟

- قبل أي شيء أنا أحمد الله على كل حال.

- معنى هذا أن هناك مشكلة كبيرة، فنحن لا نتذكر حمد الله على كل حال إلاّ عندما نكون مغمورين بالمشكلات. فلتقص عليّ قصتك.

- ليس عندي الكثير يا سيدي مما يمكن أن يُروى. أنا موظَّف وقد ادّخرت الكثير من المال وأبنائي على ما يرام.

- ما الأمر إذن؟

- بصراحة لست أدري، ربما ظننتَ أن هذا غباء...

- مطلقاً.

وبهدوء وذكاء استطاع السيد باين استدرجه السيد باين للحديث عن نفسه لمعرفة معلومات عنه. قال السيد روبرتس:

أنا أعمل في شركة معروفة، وأنا متزوج، وقد كافحت كثيراً للظهور بهيئة اجتماعية مناسبة ولتعليم أبنائي ولادخار مبلغ من المال كل عام. كانت حياتي كلها كفاح من أجل البقاء. زوجتي في الوقت الحالي عند أمها هي والطفلان من أجل تغيير الجو للطفلين وحتى تستجم زوجتي لبعض الوقت. ليس هناك متسع لي في منزل أمها كما أننا لا نستطيع الذهاب إلى مكان آخَر. لقد قرأت إعلانك يوماً ما، وجعلني أفكر في أنني الآن أقترب من الخمسين من العمر، والعالَم يتغير من حولي في حين أنني كما أنا دون تغيّر. أنا أريد الانطلاق من السجن الذي أنا فيه، ولو لفترة وجيزة. وبالتأكيد سأعود من انطلاقتي راضياً لأن هناك ما أفكر فيه، أليس كذلك؟ وأنبهك إلى أنني لن أدفع الكثير من المال.

- كم يمكنك أن تدفع؟

- قد أستطع دفع خمسة جنيهات.

- أظن أنه يمكننا تدبير شيء لك مقابل الجنيهات الخمسة. هل تخاف الأخطار والمغامرات؟

فظهر شيء من التورد على وجنتَي السيد روبرتس وهو يقول: لا، ولا أظنني فعلت شيئاً خطراً في حياتي.

فقال السيد باين مبتسماً: حسناً، فلتقابلني غداً صباحاً لأخبرك بما تفعله.

* * *

دخل السيد باين مطعم بون فواياجير الصغير، وهناك سأل النادل عن السيد بونغتون، فأخبره أنه في مكانه المعتاد فاتجه إليه باين على الفور، ولمّا رآه صديقه الذي كان يبدو عسكرياً قام ليصافحه بحرارة ويسأله عن أحواله وسبب اختفائه في الفترة الأخيرة، فقالت له باين: في الحقيقة كنت أفكر في آخر حوار تمّ بيننا.

- أتقصد موضوع بيتر فيلد؟ هل علمت أنه قُتل؟

- يا إلهي! ماذا تقول يا رجل؟!

- هذا لا يثير دهشتي أبداً؛ لقد كان عنيداً ولم يستمع لنصائحنا وأصر على الاحتفاظ بالخطط معه.

- وهل تمّ القبض على القتلة؟

- لا، ومن الواضح أن إحدى النساء كانت قد أعطته وصفة لطهو اللحم المسلوق، ولأنه دائماً ينسى كل شيء فقد وضع الوصفة في الخزانة ووضع الخرائط في المطبخ.

- هذا من حسن الحظ.

- بل هي رحمة من السماء. ولكنني لا أعرف حتى الآن من يمكنه الذهاب بهذه الخرائط إلى جنيف! فميثلان في المستشفى وكارسليك في برلين وأنا لا يمكنني السفر الآن. لم يعُد أمامنا سوى هوفر الصغير.

- أما زال رأيك فيه كما هو؟

- نعم، وأنا متأكد من أنه محتال، ولكن لا بُدّ من إرسال تلك الخطط إلى جنيف. هذه المرة الأولى التي نقدم فيها اختراعاً كهدية لدولة أخرى دون بيعه. هذه بادرة جيدة في السّلم ولا أريد أن ينتشر خبرها، ولكن هذا الفتى هوفر محتال.

- لقد سألتَني من قبل إن كنت أعرف أحداً.

- أجل، هل تعرف من يجازف بتولّي هذه المهمة؟ ومن يأتي من ناحيتك لن تحوم حوله أية شبهة، ولكن يجب أن يكون شديد البأس قوي الأعصاب.

- أظنني أعرف من تتوافر فيه هذه الصفات.

- حسناً، اتفقنا.

* * *

لخص السيد باين تعليماته للسيد روبرتس قائلاً: ستسافر بالدرجة الأولى في عربة نوم إلى جنيف في القطار الذي يغادر لندن في العاشرة وخمس وأربعين دقيقة والذي يمرّ بفولكستون وبولوني. من المفترض أن تصل إلى جنيف صباح اليوم التالي في الساعة الثامنة، ولتحفظ العنوان الذي ستذهب إليه جيداً فسوف أمزق الورقة الآن. بعد ذلك تذهب إلى الفندق الذي اتفقنا عليه وتنتظر هناك تعليمات منّي، ومعك ما يكفي من العملة الفرنسية والسويسرية التي يمكن أن تحتاجها في مهمتك. واضح؟

- نعم يا سيدي، ولكن ما الذي أحمله معي؟

- معك بيان يوضّح مكان إخفاء الجواهر الخاصة بتاج قيصر روسيا، والكثيرون يريدون الحصول على هذه الوثيقة، وإذا سُئلت عن سبب زيارتك يمكنك أن تقول إنك ربحت بعض النقود وتنشد بعض المتعة.

* * *

جلس السيد روبرتس يحتسي قهوته أمام بحيرة جنيف في سعادة ممتزجة بخيبة الأمل. كان سعيداً لزيارته بلداً أجنبياً لأول مرة في حياته وإقامته الكاملة في فندق لا يحلم بالإقامة في مثله. وكان يشعر بخيبة الأمل لأنه لم يتعرض لأي محاولة لاستهداف ما معه. كان الاتصال الوحيد الذي تمّ بينه وبين إنسان آخَر هو اتصال تمّ بينه وبين رجل فرنسي في القطار. كان قد أخفى الوثيقة في مكانها المحدد في الحقيبة ثم سلّمها حسب التعليمات، أي أنه لم يتعرض لأي خطر، وكان هذا يُشعِره بخيبة الأمل.

في تلك اللحظة اقترب منه رجل طويل القامة ذو لحية وقال لها هامساً: معذرة يا سيدي، ولكنني أظنك تعرفي صديقاً لي يرمز إلى اسمي دائماً بالحرفَين «ب ب»؟

وهنا أحسّ السيد روبرتس بالسعادة. أخيراً جاءه العميل، فقال له: أجل، أنا أعرفه.

- يمكننا التفاهم إذن.

فتفحصه السيد روبرتس بنظره فوجده رجلاً في نهاية العقد الخامس من عمره تبدو عليه علامات الثراء. قال له الرجل: لقد أتممت مهمتك بكفاءة حتى الآن، فهل أنت مستعد للقيام بمهمة جديدة؟

- تمام الاستعداد.

- احجز لنفسك غرفة في عربة النوم في القطار المتجه من جنيف إلى باريس غداً مساء، احجز المقصورة رقم ٩، وسوف نرتّب أن تكون تلك المقصورة فارغة لك، وفي أثناء الرحلة سيسألك شخص إن كنت زرت غراس منذ وقت قريب، فتجيبه أنك زرتها منذ شهر، فيسألك عن اهتمامك بالعطور، فتجيبه أنك تعمل في صناعة عطر الياسمين. ثم ضع نفسك تحت تصرفه. هل معك سلاح؟

- لا.

- فنظر الرجل حوله ليتأكد من أنه لا أحد قريب منهما، ثم أخرج من جيبه شيئاً صلباً يلمع في ضوء الشمس ودسّه في يد السيد روبرتس وقال له: هذا سلاح صغير، ولكنه فعّال.

كانت المرة الأولى التي تلمس فيها يده سلاحاً، فأخفاه في جيبه سريعاً، ثم بدأ يشعر بالخوف من أن تنطلق رصاصة منه في أية لحظة. قال له الرجل: حظاً سعيداً. أنت رجل شجاع، وأتمنى لك القيام بالمهمة على أتمّ وجه.

وانصرف الرجل فقال روبرتس في نفسه: أحقاً أنا شجاع؟

ربما كنت كذلك ولكنني لا أريد أن أُقتل أو حتى أن أُصاب.

ثم عاد يشعر بالسعادة، ولكنها كانت مقترنة بالخوف لا بخيبة الأمل، فعاد إلى غرفته وفحص المسدس. لم يكن واثقاً من معرفته لطريقة استخدامه. بعد قليل حجز لنفسه مقعداً بالقطار وذهب إلى المحطة في الموعد، وأعطى الحقيبة للحمّال الذي صحبه إلى مقصورته التي كان فيها سريران وكانت فيها حقيبة من جلد عادي وأخرى من الجلد القوي، وكان السرير رقم ٩ هو السرير السفلي.

وضع روبرتس أمتعته وخرج من الغرفة، فكاد يصطدم برجل شديد الضخامة حليق الرأس يلبس نظارة سميكة، فاعتذر كلاهما للآخَر. كان الرجل يتحدث الفرنسية وكانت نظراته فيها شك كبير، فقال روبرتس في نفسه إنه رجل لا يُحتمل. وأحس في نفسه بالقلق من ذلك الرجل، فهل طلبوا منه الحجز في رقم ٩ لمراقبته؟ هذا محتمَل.

خرج روبرتس إلى الممر ولم يتبقّ على تحرّك القطار إلاّ نحو عشر دقائق، فأخذ يتمشّى بعض الوقت على رصيف المحطة، وهناك رأى امرأة تتبع حمّالاً إلى مقصورتها، وعندما أصبحت بجواره سقطت منها حقيبتها، فانحنى ليلتقطها لها فقالت له: شكراً جزيلاً يا سيدي.

كانت تتحدث الإنكليزية بلكنة أجنبية وكانت عذبة النبرات، وقبل أن تكمل سيرها توقفت والتفتت إليه وسألته: عذراً يا سيدي، أظنك كنت في غراس منذ وقت قريب.

وهنا دبت الحماسة في قلب روبرتس وقد أدرك أن عليه أن يضع نفسه تحت تصرف تلك المرأة الجميلة. كانت أرستقراطية المظهر يبدو عليها الثراء الشديد بمعطفها المصنوع من الفراء وقبعتها الأنيقة وعقدها الثمين من اللؤلؤ، وكانت سمراء البشرة. قال لها مجيباً: أجل، منذ شهر. وسريعاً تمّ بينهما تبادل كلمة السر ثم اتفقا على اللقاء في ممر القطار عند تحركه.

وفي ممر القطار بعد انطلاقه كان روبرتس يمشي متمهلاً، فوجدها تحاول فتح النافذة بصعوبة فأسرع يساعدها، فشكرته وقالت: أريد القليل من الهواء قبل إغلاق النوافذ.

ثم أكملت هامسة: بعد المرور من الحدود ونوم زميل مقصورتك اذهب إلى دورة المياه واعبر منها إلى المقصورة التي تجاورها. واضح؟

- نعم.

ثم رفع صوته قائلاً وقد أتمّ فتح النافذة: هل من خدمة أخرى يا سيدتي؟

- لا، شكراً جزيلاً يا سيدي.

وعاد إلى المقصورة ليجد زميله مستلقياً على فراشه مرتدياً ملابسه كاملة دون المعطف والحذاء، فخلع روبرتس حذاءه ثم أطفأ النور وتمدد بملابسه على فراشه السفلي، ولم تمضِ دقائق قليلة حتى كان شخير زميله يطغى على جو الغرفة.

في نحو العاشرة كان القطار قد وصل إلى الحدود، وهناك دخل مفتش جمارك القطار لسأل أسئلته المعتادة، ثم عاد القطار ينطلق وعاد زميله إلى شخيره، فبقي روبرتس دقائق قليلة أخرى ليتأكد من استغراق زميله في النوم، ثم خرج إلى دورة المياه موصداً الباب وراءه جيداً، ثم نظر إلى الباب المقابل الذي يؤدي إلى المقصورة الأخرى. ولأنه كان يعرف أن المرأة تنتظره فقد آثر ألاّ يقرع الباب، ففتح الباب وانتظر قليلاً متنحنحاً، ففوجئ بالباب يُفتح بسرعة وبيدٍ تمسك ذراعه وتجذبه إلى الداخل وتُغلِق الباب وراءه جيداً.

وبانبهار نظر روبرتس إلى المرأة التي جذبته إلى المقصورة. بدت في تلك اللحظة أصغر سناً مما بدت له في بداية الأمر، وكانت بالغة الجمال وصدرها يعلو ويهبط بطريقة توحي بالذعر الشديد، وقد استندت إلى الباب وهي تقول بصوت منخفض: حمداً لله... أنا سعيدة لحضورك، لقد كنت في شدة الخوف لأن أسيليفتش في هذا القطار... وأنت تعلم ما يعنيه هذا.

لم يكن روبرتس يعلم معنى ما قالته بالطبع، ولكنه اكتفى بهزّ رأسه دون اكتراث، فقالت: ظننت أنني هربت منهم، ولكنني عرفت أن أسيليفتش موجود في المقصورة المجاورة، وعلينا ألاّ ندعه يحصل على الجواهر حتى لو قتلني.

فقال بصوت صارم: لن يمكنه قتلك ولن يحصل على الجواهر.

- ماذا أفعل بها إذن؟

- هل الباب محكم الإغلاق؟

- نعم، ولكن هذا لن يقف في طريق أسيليفتش.

فقال وقد شعر أنه يعيش في رواية بوليسية: ليس أمامنا إلاّ شيء واحد. أعطيني الجواهر.

فقالت بشك: هذه الجواهر ثمنها ربع مليون جنيه.

- عليك أن تثقي بي.

فقال تبعد تردد دام هنيهة: حسناً، أنا أثق بك.

ثم أخرجت جورباً ثقيلاً ملفوفاً بعناية وأعطته له قائلة: خذها إلى مقصورتك، ويمكن أن تعيدها إليّ عند الصباح... هذا إذا وجدتني على قيد الحياة.

فقال: اسمعيني جيداً يا سيدتي، يجب عليّ القيام على حمايتك. ثم أكمل بخجل: لا أعني هنا في مقصورتك بالطبع، ولكن سأبقى في دورة المياه.

فأشارت إلى السرير العلويّ الشاغر في مقصورتها وقالت: إذا كنت تريد البقاء هنا فيمكنك أن تنام على هذا السرير.

- لا، لا، بل من سأبقى في دورة المياه وسأكون قريباً منك إن احتجتِني.

فقالت بلهجة رقيقة: شكراً جزيلاً يا سيدي.

ثم استلقت على سريرها وجذبت الغطاء فوقها مبتسمة له بامتنان، في حين اتجه هو إلى دورة المياه.

مضت ساعتان، وفجأة شعر روبرتس بحركة قريبة منه، ففتح الباب ببطء ليجد المقصورة كما كانت بنفس الضوء الأزرق الخافت الذي لا يكاد يبدد الظلام، ونظر إلى الفراش ليجده خالياً تماماً، فأضاء النور وهو يشتمّ رائحة الكلوروفورم التي تملأ المكان.

خرج من المقصورة إلى ممر القطار الذي كان خالياً، فنظر إلى باب المقصورة المجاورة التي كانت المرأة قد أخبرته أن أسيليفتش موجود فيها وحاول أن يفتح بابها ببطء، ولكن الباب كان موصداً من الداخل. ولم يكن يدري ماذا يفعل، كان تدخله بشكل مباشر يهدد العملية كلها لأن الأمر كان يتطلب السرية التامة.

أخذ يروح ويجيء في الممر في حيرة تامة، ثم توقف عند المقصورة الأخيرة في الممر والتي كان بابها مفتوحاً وكان محصّل تذاكر القطار نائماً فيها، وعلى مشجب المقصورة كان معطف عمله معلّقاً إلى جوار قبعته، فتسلل بهدوء إلى داخل المقصورة وأخذ المعطف والقبعة ثم خرج ليرتديهما في الممر، ثم اتجه إلى مقصورة أسيليفتش مباشرة مستجمعاً شجاعته وطرق الباب، ولكنه لم يتلقّ إجابة فعاد يطرقه بقوة، وفُتح الباب فتحة صغيرة وقد أطلّ منه رجل حليق الرأس كَثّ

الشارب أسوَده، وصاح بغضب: ماذا تريد؟

فقال بلهجة هادئة تخفي ما يعتمل في نفسه من الاضطراب: جواز سفرك يا سيدي.

فتردد الرجل قليلاً ثم خرج إلى الممر، وهنا تيقّن روبرتس أن الفتاة في الداخل لأن الرجل كان يحول دون دخوله المقصورة، فدفع الرجل دفعة مفاجئة إلى وسط الممر، وقد أدّت المفاجأة واهتزاز القطار إلى سقوط الرجل على الأرض في حين دخل روبرتس سريعاً إلى المقصورة وأغلقها وراءه، فوجد الفتاة موثَقة اليدين مكمَّمة الفم، فحلّ وثاقها سريعاً وقد بدا عليها التعب الشديد من أثر الكلوروفورم، فقالت: هل حصل على الجواهر؟

- لا، ولكنني لا أدري ماذا يمكن أن نفعل.

وحين انتبهت إلى الزي الذي يرتديه قالت بإعجاب: يا لذكائك! لقد هددني بالقتل إذا لم أخبره بمكان الجواهر، وكدت أموت رعباً لولا وصولك.

ثم أضافت ضاحكة: لن يستطيع الآن عمل شيء ولا حتى العودة إلى مقصورته، كل ما علينا الآن هو الانتظار هنا حتى الصباح. بالتأكيد سيغادر القطار في ديغون التي نصل إليها بعد نصف ساعة وسيرسل برقية إلى باريس ليقابلنا أتباعه هناك. لكن عليك أولاً التخلّص من زيّ المحصّل قبل أن يُكتشف أنك سرقته.

- فليكُن.

- وعلينا أن نبقى يقظَين حتى الصباح.

وبالفعل بقيا طوال الليل يقظَين، وفي نحو السادسة صباحاً فتح روبرتس باب المقصورة بحرص ونظر في الممر فوجده خالياً، فخرجت الفتاة بسرعة إلى الممر ومنه إلى مقصورتها وروبرتس يتبعها، وهناك كان من الواضح أن أحدهم قد عبث بمقصورتها وقلب محتوياتها، وعاد روبرتس إلى مقصورته حيث وجد زميله ما زال على نومه وشخيره.

وصل القطار إلى باريس في السابعة حيث كان محصل القطار يثير ضجة كبيرة بسبب اختفاء زيه الرسمي، ولكنه لم يكن قد اكتشف غياب أحد الركاب.

وفي باريس دارت مطاردة مسلية انتقلا فيها من طرف المدينة إلى طرفها مستقلَّين عدداً من سيارات الأجرة داخلَين من أبواب الفنادق والمحالّ وخارجَين من أبوابها الخلفية، وفي النهاية قالت الفتاة: بالتأكيد فقدوا أثرنا الآن.

تناولا إفطارهما ثم اتجها إلى مطار ليبورجيه حيث ركبا طائرة إلى كرويدون. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يركب فيها روبرتس طائرة، ولهذا فقد كان سعيداً جداً.

في كرويدون قابلا رجلاً طويل القامة يشبه الرجل الذي قابله روبرتس في جنيف، فحيّا الرجل الفتاة باحترام وتهذيب شديد ثم أشار إليهما أن يتبعاه قائلاً إن هناك سيارة في انتظارهم، فاستدارت هي إلى روبرتس وقدمت له الرجل قائلة: أقدم لك الكونت بول ستيباني الذي سيرافقنا في رحلتنا.

كانت السيارة فاخرة من نوع الليموزين، وقد انطلقت بهم نحو ساعة حتى وصلت إلى قصر ريفي منيف، فدخلوا إلى غرفة مكتب أنيقة، وهناك قام بتسليم ذلك الجورب المليء بالجواهر. وتركا روبرتس وحده لحظة، ثم عاد الكونت إليه قائلاً: سيد روبرتس، لك منّا كل الشكر على شجاعتك وإقدامك، واسمح لي بمنحك وسام «سان ستانيلا» مع مرتبة الشرف.

ثم قدّم له علبة من القطيفة الحمراء، ففتحها روبرتس بانبهار وهو لا يكاد يصدق أنه يحيا حقيقةً واقعة، وحدّق إلى القلادة المرصَّعة بالجواهر في حين قال الكونت: تفضل معي؛ الدوقة العظيمة أولغا تريد أن تشكرك قبل أن ترحل.

ثم ذهبا إلى غرفة كبيرة للاستقبال حيث وقفت رفيقته وقد ارتدت رداء طويلاً أنيقاً ينمّ عن الثراء الكبير، وهنا أشارت بيدها فخرج الكونت من الغرفة، فدُهش روبرتس وقد أدرك أنها هي نفسها الدوقة، وقالت له: سيد روبرتس، أنا الآن أدين لك بحياتي... أنت أشجع من عرفت.

ثم اقترب منه شخص وقال له: السيارة الآن مستعدة لتقلّك إلى حيث تشاء يا سيد روبرتس.

بعد نحو ساعة كانت السيارة تقف مرة ثانية أمام القصر ليستقلّها الكونت والدوقة، وكان الكونت قد خلع لحيته المستعارة. نزلت الدوقة من السيارة عند منزل في ضاحية ستريتهام فدخلته لتجد امرأة عجوزاً تصب الشاي في قدح

وتقول لها: أخيراً عدتِ يا ماغي!

كانت الفتاة رفيقة روبرتس في القطار، وكانت هي الدوقة أولغا في القصر، وكانت هي مادلين دي سار في مكتب السيد باركر باين، وفي ستريتهام كانت هي ماغي سايرز الابنة الرابعة في إحدى العائلات المحافظة.

* * *

في مكتبه كان السيد باركر باين يتناول غداءه مع صديقه الذي كان يقول له: أهنئك على قيام رجلك بالمهمة. أظنهم فقدوا عقولهم حين لم يحصلوا على الوثيقة. هل كان على علم بمحتوياتها؟

- لقد اخترعت له قصة أخرى.

- هذا أفضل.

- ليس الأمر هكذا فقط، بل أردت أن يشعر ببعض المغامرة.

- هل يكون مكسبك كبيراً من وراء هذا العمل يا سيد باين؟

- نعم، ولكنني أخسر أحياناً إذا كانت القضية تستحق.

* * *

وفي مكان ما في باريس كان ثلاثة أشخاص يتشاحنون ويقول أحدهم للآخرَين: ذلك اللعين هوير خدعنا!

- لقد خرجت الوثيقة من المكتب يوم الأربعاء ولكنها لم تكن مع أيّ من أعضاء المكتب، وكل ما حدث أنك أسأت التصرف.

فأجاب الثالث بلهجة غاضبة حانقة: أنا لم أُسئ التصرف في شيء؛ فلم يكن هناك إنكليز سوى كاتب صغير من المستحيل أن يكون قد عرف شيئاً عن بيتر فيلد أو الوثيقة طوال حياته.

* * *

جلس روبرتس بجوار المدفأة وقد أمسك بيده خطاباً من السيد باركر باين كان معه شيك بمبلغ خمسين جنيهاً من بعض مَن يقدّرون ما قام به من أجلهم، وأطلق الرجل زفرة قوية وهو يتذكر كل ما حدث له. كان سعيداً للغاية وهو يتذكر أن زوجته وأبناءه سيعودون في الغد.

ابتسم سعيداً وهو يتخيل زوجته وهي تقول له إن كل ما كان ينقصها في رحلتها هو وجوده معها، في حين يخبرها أنه ذهب إلى جنيف في مهمة خاصة بعمله، وقد أجرى هناك بعض المفاوضات تمّت مكافأته عليها بهذا الشيك. وتذكّر الوسام فقرر أن يخبرها أنه اشتراه من جنيف كتذكار للرحلة.

ثم أخذ كتاباً من مكتبته الصغيرة وأخذ يقرأ فيه وهو يشعر بسعادة بالغة لم يشعر بمثلها من قبل.

* * *

قضية المرأة الحزينة

جلس السيد باركر باين صاحب «مكتب باركر باين للسعادة» في مكتبه يتصفّح جرائد الصّباح. لم يكن في الجرائد شيء ذو بال، فوضع باركر باين الجرائد على المكتب وهمّ بأن يستدعي سكرتيرته بالتليفون ليسألها عما إذا كان أحد قد طلب مقابلته، وقبل أن يرفع السماعة فوجئ بالتليفون يرن، وإذا بالسكرتيرة تقول: سيدة شابة تطلب مقابلتك يا سيدي.

فسألها إن كان لها موعد سابق، فأجابت بالنفي، فأمرها بأن تسمح لها بالدخول.

وبعد لحظات كان باب المكتب يدق ودخلت المرأة، فنهض باركر باين مرحباً وصافح زائرته ثم قال: تفضلي بالجلوس يا سيدتي.

جلست المرأة وهي ما تزال تنظر إلى صاحب المكتب. كانت صغيرة السن جداً، سوداء الشعر جميلة جذابة الملامح أنيقة الهندام، ولكنها تبدو في حالة عصبية بالغة. وسألته: هل أنت السيد باركر باين؟

فأومأ لها بالإيجاب مبتسماً، فسألته مرة أخرى: هل أنت الذي يعلن في الصحف عن... عن السعادة؟

فأومأ لها بالإيجاب مرة أخرى، فقالت: إعلاناتك تقول إن الإنسان إذا كان غير سعيد فعليه أن يقصدك.

فقال: تماماً.

فاستجمعت الزائرة شجاعتها وقالت: أنا في تعاسة بالغة، ولذلك جئت إليك كي أرى...

ثم أخذت تفرك يديها في عصبية وهي لا تدري ماذا تقول، فقال لها باركر باين في عطف: ألا تستطيعين مصارحتي بمشكلتك؟

- بلى، بلى، هذا ما جئت من أجله. يجب أن أخبرك بكلّ شيء، فأنا أكاد أفقد عقلي من الحزن والقنوط ولا أدري ماذا أفعل أو بمن أثق... ثم طالعت إعلاناتك في الجرائد. ولقد تصوّرتها في البداية نوعاً من النصب، ثم فكّرت أنه لا يضيرني في شيء أن آتي إليك، وإذا لم أثق بك فإنني أستطيع دائماً أن أنسحب. أليس كذلك؟

- بلى، بالطبع.

- قد يكون ذلك غريباً وغير معقول، ولكنني فعلاً أشعر أنني أستطيع أن أثق بك.

- تأكدي يا سيدتي أن ثقتك في محلّها.

- حسناً، إليك مأساتي. اسمي دافن سانت جون.

فاعترضها باركر باين: الآنسة دافن سانت جون؟

فأجابت: بل السيدة دافن سانت جون؛ فأنا متزوجة.

فقال باركر باين: حقاً ما أغباني! كان يجب أن ألاحظ الخاتم في إصبعك.

قالت دافن: ليتني لم أكن متزوجة... لو لم أكن متزوجة لما كانت مأساتي تهمني إلى هذه الدرجة، ولكني حزينة من أجل جيرالد. هذا هو لب المأساة.

ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها خاتماً ألماسياً ثميناً وضعته أمام باركر باين. فتناول باركر باين الخاتم وفحصه بيد خبير ثم قال: هذا خاتم رائع، إنه يساوي ثلاثة آلاف جنيه على الأقل.

- نعم، ولكنه خاتم مسروق. أنا التي سرقته.

- هذا غريب جداً.

وفجأة انخرطت دافن سانت جون في نوبة بكاء حادة، فأخذ باركر باين يرفّه عنها ويقول لها: اطمئني، سوف يكون كل شيء على ما يرام.

فأخذت تنشج باكية: هل هذا معقول؟ هل هذا معقول؟

- معقول جداً. أخبريني بالقصة كاملة وسوف ترين.

تمالكت المرأة الحزينة نفسها وجففت دموعها ثم بدأت قصتها: السبب كله هو إسرافي الزائد؛ أنا امرأة مسرفة جداً

وإسرافي يضايق زوجي جيرالد. وقد اضطرني إسرافي إلى الاستدانة بلا علم زوجي، ثم حاولت تسديد الديون عن طريق لعب القمار، ولكني خسرت ثم خسرت ثم خسرت.

- حسناً، أنا أعرف جيداً مآسي القمار، ولكن استمري في قصتك من فضلك.

- وصلت ديوني إلى حد يستحيل عليّ فيه أن أخبر جيرالد بشيء، ورحت أتألم في صمت. ومنذ أيام ذهبت مع زوجي لقضاء بضعة أيام عند عائلة دورتيمر في كوبهام، وهي عائلة غنية جداً والزوجة (واسمها نعومي) كانت زميلتي في المدرسة، وهي شابة جميلة ورقيقة، وهذا الخاتم لها في الواقع. وأثناء إقامتنا هناك تخلخل فص الخاتم الألماسي فرجتني نعومي أن أحمل الخاتم معي عند عودتي إلى لندن لكي أسلّمه إلى صائغها في شارع بوند.

وهنا توقفت دافن عن الكلام فاستحثها باركر باين فقالت: هل تقسم لي على ألا تفشي هذا السر؟

- مستحيل طبعاً، وفضلاً عن ذلك لقد أخبرتني بالكثير حتى الآن مما يستحيل عليك التراجع فيه.

- أنت على حق في هذا، ولكني أشعر بخجل شديد من نفسي. على كل حال لقد ذهبت إلى شارع بوند، ولكني لم أذهب إلى صائغ نعومي بل ذهبت أولاً إلى صائغ آخر متخصص في تقليد الجواهر وطلبت منه أن يصنع لي نسخة أخرى طبق الأصل من خاتم نعومي. وبعد أيام استلمت الخاتم

المقلد فإذا به لا يكاد يختلف في شيء عن الخاتم الأصلي. واحتفظت لنفسي بالخاتم الأصلي وأرسلت الخاتم الزائف إلى صديقتي نعومي قائلة لها إنه قد تمّ إصلاحه. تصور مدى حقارتي يا سيد باركر باين! لقد سرقت صديقتي التي ائتمنتني، أنا لصة وضيعة!

كفت دافن عند ذلك عن الكلام، فانتظر باركر باين لحظات ثم قال: أعتقد أن القصة لم تكتمل بعد، أليس كذلك؟

فتنهدت دافن وقالت: لا، لم تنتهِ القصة بعد. لقد حدث ذلك كله منذ ستة أسابيع، وقد رهنتَ الخاتم وسددت ديوني كلها، ولكني تعيسة في أعماقي. وفجأة توفيت قريبة ثرية وتركت لي ثروتها فأصبحت غنية، وكان أول ما فعلته هو أنني فككت الرهن واستعدت الخاتم، ولكن شيئاً خطيراً حدث.

قال باركر باين: ماذا حدث؟

أجابت دافن: لقد نشأ خلاف بيننا وبين عائلة دورتيمر، وهكذا استحال عليّ أن أعيد الخاتم إلى نعومي.

- لم لا ترسلين إليها الخاتم في طرد مسجَّل بلا توقيع؟

- في هذه الحالة سوف تفحص نعومي الخاتم الزائف وتكتشف القصة كلها.

- ولكنك تقولين إنها صديقتك، لمَ لا تخبرينها بالحقيقة كلها وتطلبين منها الصّفح؟

- أوه، لسنا أصدقاء إلى هذا الحد، ومن الجائز أنها سوف تصفح عني ولا تبلغ الشرطة، ولكن من المؤكد أنها سوف تخبر كل شخص تعرفه في إنجلترا، وبذلك يصل كل شيء إلى جيرالد، وربما طلقني. أوه، الموضوع معقد جداً!

ثم بدأت تبكي من جديد وتصيح: لقد فكرت مراراً وتكراراً دون أن أجد حلاً. أوه، ألا تستطيع أن تساعدني يا سيد باركر باين؟ أليست هناك أي وسيلة؟

فأجاب باين: بل هناك عدة وسائل.

فأشرق وجهها وسألت: حقاً، ماذا؟

- أخبريني أولاً، هل هناك من يعرف بهذا الموضوع غيرك؟

- لا أحد سواك.

- أنا لا أهم. حسناً، إن سرك الآن في مأمن، والمطلوب هو استبدال الخاتم الزائف بالأصلي في سرّية تامة.

- نعم، نعم.

- هذا ليس بالأمر الصعب، وسوف يتطلب بعض الوقت فقط لتدبير الخطة المناسبة.

فقاطعته: ولكن ليس هناك وقت، وهذا ما يدفعني إلى الجنون. لقد سمعت من صديقة أن نعومي بصدد تغيير فص

الخاتم هذه الأيام.

- إذن يجب أن نتصرف بسرعة.

- نعم، بأقصى سرعة.

قال باركر باين مفكراً: المطلوب أولاً هو دخول المنزل بطريقة غير ملحوظة، ولكن ما هي مناسبة الدخول؟

- أنا أعرف أن نعومي تقيم حفلة كبيرة يوم الأربعاء القادم وأنها الآن بصدد البحث عن راقصين محترفين لإحياء الحفل. لا أعلم ماذا تم بالضبط بخصوص ذلك.

قال باين بسرعة: آه، هذه فكرة جميلة. إذا كانت قد اتفقت مع الراقصين فعلاً فإن ذلك سوف يفيدنا أكثر. هذا كل ما في الأمر. أخبريني الآن يا سيدة دافن، هل تعرفين مكان فيشات الكهرباء في منزل عائلة دورتيمر؟ أرجو أن ترسمي لي خريطة للصالة وخزانة الفيشات.

رسمت له الخريطة فأخذها وقال لها: اطمئني الآن، سوف يمضي كل شيء على ما يرام. هل آخذ الخاتم الآن؟

فترددت قليلاً ثم قالت: أفضل أن أحتفظ به حتى يوم الأربعاء.

- كما تشائين، ولكن أرجو أن تنزعي من نفسك كل أثر للقلق فسوف أحلّ مشكلتك تماماً.

- ماذا بخصوص أجر خدماتك؟

- أوه، لا داعي لذلك الآن. سوف أخبرك فيما بعد بما أنفقته في هذا الموضوع، وتأكدي أنه سوف يكون شيئاً بسيطاً.

فقامت دافن من مكانها وهي تشكره، واصطحبها هو إلى الباب مودّعاً وظل واقفاً حتى انصرفت، ثم رنّ الجرس لسكرتيرته وقال لها: أرسلي لي كلود ومادلين فوراً.

وبعد دقائق جاء كلود ومادلين تلبية لأمر مخدومهما. كان كلود شاباً فائق الجاذبية والرشاقة، أما مادلين فكانت ساحرة رائعة الجمال. قال لهما: أصغيا إليّ، عندي لكما عمل صغير سوف تؤديان فيه دور راقصَين محترفَين في حفلة كبيرة.

ثم شرح لهما باركر باين بعض التفاصيل الخاصة بتنفيذ الخطة، وبعد ذلك انصرفا لتنفيذ المطلوب.

* * *

وجاء يوم الأربعاء، وظهرت السيدة نعومي دورتيمر في غاية السعادة لنجاح حفلتها، وأخذت تنتقل من مكان لآخر كالفراشة الجميلة السعيدة وهي تعطي الأوامر لهذا الخادم أو ذاك. لم يكن هناك عيب في الحفلة إلا اعتذار الراقصين المفاجئ، وإن كان المتعهد قد وعدها بإرسال راقصَين آخرَين قال عنهما إنهما نجحا نجاحاً هائلاً في باريس.

وفي النهاية وصل الراقص والراقصة، وأُعجبت نعومي بجمالهما ورشاقتهما، وسارت الحفلة على خير ما يرام وأبدع

الراقص وزميلته في تقديم رقصات إسبانية باهرة.

وبعد ذلك اندمج جميع الحاضرين في الرقص وسط الأضواء الرائعة الملونة والموسيقى الشجية. وأثناء الرقص تقدم الراقص المحترف الوسيم كلود إلى نعومي وطلب منها أن تراقصه. كانت نعومي في حلم رائع، فهي لم تُراقص في حياتها شاباً له هذه الوسامة وهذه الرشاقة في الرقص. أما السيد دورتيمر زوج نعومي فإنه كان يبحث عن الراقصة الساحرة مادلين لكي يراقصها بدوره، ولكنه لم يجدها، وكيف له أن يجدها وهي مختفية في نهاية الصالة بجوار خزانة الفيشات وعيناها على ساعتها الذهبية في انتظار إشارة ما.

وفجأة انطفأت الأنوار، وفي الظلام الدامس انحنى كلود وقبل يد نعومي دورتيمر. وحاولت نعومي أن تسحب يدها في دلال ولكن كلود تمسك باليد ورفعها إلى شفتيه مرة أخرى، ودون أن تشعر نعومي كان خاتمها الألماسي يفارق يدها وينتقل إلى يد كلود. وبعد لحظات عادت الأنوار وأفاقت نعومي من حلمها البهيج.

قال لها كلود مبتسماً: إليك خاتمك يا سيدتي العزيزة، لقد انزلق من يدك وأنت لا تشعرين. هل تسمحين لي بأن أعيده إلى مكانه؟

قال هذا ثم وضع الخاتم في إصبعها وهو يسلط عينيه على عينيها. وفي نفس الوقت كان السيد دورتيمر يقول: من المسؤول عن إطفاء الأنوار؟ لا بد أنه شخص ذو مزاح من

النوع الثقيل.

* * *

في صباح الخميس وصل السيد باركر باين إلى مكتبه ليجد السيدة دافن سانت جون في انتظاره. قالت له بلهفة: حسناً، ماذا فعلت؟

قال لها في لوم: تبدين شاحبة؟

قالت: أوه، لم أنم جيداً البارحة. كنت أتساءل ما إذا كنت ستنجح أم لا.

فلم يردّ باركر باين وإنما أخرج من جيبه ورقة وأخذ يقرأ منها: هذه هي قائمة أجر خدماتي: تذاكر القطار وخمسون جنيهاً لكل من كلود ومادلين، وهذا يجعل الأمر كله ٦٥ جنيهاً و ١٧ شلناً.

قالت دافن: حسناً، ولكن ماذا حدث؟ هل نجحت؟

فنظر إليها باين في دهشة وقال: يا سيدتي العزيزة، طبعاً نجحت. هذا أمر لم أتوقع أبداً أن يكون محلاً للشك.

تنهدت المرأة في سعادة وقالت: الحمد لله، لقد كنت أخشى.

فقال باين في كبرياء: الفشل لا وجود له في قاموسي يا سيدتي العزيزة. أنا لا أقبل قضية إلا إذا كنت واثقاً من نجاحها، وإذا قبلت قضية فإن ذلك معناه بالتأكيد نجاحي فيها.

- هل استردت نعومي خاتمها دون أن تشك في شيء؟

- طبعاً، لقد تمت عملية الاستبدال بشكل رائع.

- إنك لا تتصور مدى راحة الضمير التي أشعر بها الآن. ماذا كنت تقول بخصوص أجرك؟

- ٦٥ جنيهاً و ١٧ شلناً.

ففتحت دافن حقيبتها وأخرجت منها بسرعة المبلغ المطلوب، فتناوله باركر باين وأحصاه بهدوء ودقة ثم وضعه في درج وكتب لها إيصالاً بالمبلغ وسلمه لها.

قالت دافن في دهشة: ولكن ماذا بخصوص أجرك أنت؟ هذا المبلغ هو مصاريف القطار والراقصين، ما هو أجرك أنت؟

فهز رأسه وقال: لن أتقاضى أجراً في قضيتك.

اعترضت دافن: ولكن لا يا سيد باين، أنا لا أستطيع...

فأصرّ قائلاً: لا، لا. لن آخذ شلناً واحداً. هذا أمر ضد مبادئي، والآن...

وارتسمت على وجهه ابتسامة كابتسامة الساحر الماهر، وأخرج من جيبه علبة صغيرة وضعها أمام دافن سانت جون، ففتحتها المرأة بلهفة فوجدت الخاتم الألماسي يلمع وسطها. تأملته لحظة ثم صرخت وصدرها يعلو ويهبط في عصبية شديدة: هل أنت واثق من أن هذا الخاتم ليس هو الخاتم

الأصلي؟

فقال باين: طبعاً؛ الخاتم الذي أعطيتني إياه منذ أيام في حوزة نعومي دورتيمر الآن.

فقالت دافن وهي تتمالك نفسها: إذن فإن كل شيء على ما يرام.

- أنا سعيد لسعادتك، وأحب أن أوضح لك أن كلود المسكين لا يدري شيئاً عن الجواهر الثمينة. لقد خفت أن يخلط بين الخاتم الأصلي والخاتم المزيف، ولذلك فقد عرضت هذا الخاتم على خبير بالجواهر هذا الصباح.

- وماذا قال؟

- إنه خاتم زائف، ولكنه تقليد رائع فأرجو أن يرتاح ضميرك إلى هذا.

حاولت دافن أن تتكلم ولكنها لم تستطع، أما باركر باين فقد اضطجع في جلسته وهو ينظر إليها في هدوء ثم قال: والآن دعيني أحكي لك قصة قصيرة. يُحكى أنه كانت هناك فتاة شقراء، واسمها ليس دافن سانت جون بل اسمها إيرنستين ريتشارد، وكانت تشتغل سكرتيرة عند السيدة نعومي دورتيمر حتى فترة قصيرة. ثم حدث أن السيدة دورتيمر أرادت إصلاح خاتمها فسلمته إلى سكرتيرتها إيرنستين وطلبت منها أن تأخذه إلى الصائغ في لندن، وفي الطريق فكرت إيرنستين بالاحتفاظ بالخاتم لنفسها، فدبرت الخطة الذكية لتقليد الخاتم وصنع

نسخة مزيفة عنه. ولكن بدلاً من مجرد إعطاء الخاتم الزائف إلى السيدة دورتيمر فكرت في طريقة أكثر ذكاء، فوضعت على رأسها باروكة سوداء وقصدت مكتبي وقدمت لي نفسها على أنها السيدة دافن سانت جون، واخترعت لي قصة مؤثرة، ولكي تضمن إقناعي أرتني الخاتم الأصلي.

وبعد ذلك عادت السكرتيرة المغامرة إلى الصائغ وسلمته الخاتم الأصلي فأعاده بدوره إلى صاحبته نعومي دورتيمر. ثم جاء يوم الأربعاء وجاءت السيدة دافن سانت جون في آخر لحظة وسلمتني الخاتم الزائف على أنه الخاتم الأصلي، وهي تضمن أنني لن أجد الوقت لكي أفحص الخاتم وأتأكد من زيفه. ولكني كنت أكثر ذكاء من دافن سانت جون، فاتفقتُ من قبل مع صديق خبير في الجواهر على أن يكون موجوداً في المكتب لآخر لحظة، وقد فحص الصديق الخبير الخاتم وأكد لي أنه زائف، وكان هذا تصديقاً لشكوكي السابقة.

ثم سار كل شيء كالمتفق عليه. ذهب كلود ومادلين إلى الحفل، وراقص كلود السيدة نعومي دورتيمر وانتهز فرصة الظلمة التي اختلقتها زميلته مادلين فانتزع الخاتم الأصلي من يد نعومي، وهكذا إذا حدث في المستقبل واكتشفت نعومي دورتيمر سرقة خاتمها فإنها لن تذكر إلا الراقص الإسباني ولن تتهم غيره. وإذا تتبعت الشرطة آثار الراقص الإسباني فإنهم سوف يصلون بالضرورة إلى مكتبي، وسوف أقع أنا تحت طائلة الاتهام لأنه سيتضح أنه لا توجد سيدة باسم دافن سانت جون، وسوف يبدو دفاعي سخيفاً أمام الشرطة،

وبذلك يتلوث اسمي وتنهار سمعتي كلها، وهذا أمر لم يكن في إمكاني أن أسمح به. أليس كذلك؟

وهكذا فإنه بعد إعادة الأنوار أعاد كلود الخاتم الأصلي إلى نعومي دورتيمر، الخاتم الأصلي الذي نزعه من يدها أثناء الظلام. ولهذا لم أتقاضَ منك أجراً يا سيدتي العزيزة. إنني أتقاضى الأجر لكي أجعل الناس سعداء، ومن المؤكد أنني لم أجعلك سعيدة. ولكني سأقول شيئاً واحداً: أنت شابة صغيرة، وربما كانت هذه القضية هي أول عهدك بالنصب والاحتيال، وأملي أن تكون الأخيرة لأن الجريمة لا تفيد.

كانت دافن سانت جون تستمع إليه والدماء تتصاعد إلى وجهها وصدرها يرتفع ويهبط في عصبية، وعندما انتهى من كلامه نهضت واقفة في كبرياء عنيفة وقالت له: أيها الوضيع الخبيث القذر! لقد استدرجتني وجعلتني أصدق كلامك وأدفع لك مصاريف الكلاب التي تعمل معك.

ولم تستطع أن تكمل كلامها فأسرعت نحو الباب، فاستوقفها باركر باين قائلاً: لا تنسي خاتمك.

فانتزعت الخاتم من يده ونظرت إليه لحظة، ثم ألقته خارج النافذة وخرجت وصفقت الباب خلفها. أما باركر باين فإنه وقف لحظة متأملاً ثم عاد إلى مكتبه وتناول القلم وشطب من دفتر قضاياه قضية السيدة الحزينة.

* * *

هل تملك كل ما تتمنّى؟

أشار حمّال محطة قطارات ليون المحمَّل بالحقائب إلى السيدة ذات معطف الفراء قائلاً: من هنا يا سيدتي.

كانت تضع فوق رأسها قبعة منسوجة بخيوط بنّية تغطي منها عيناً وأُذناً، ولكن نصف وجهها الذي كان ظاهراً كان يدلّ على جمال شديد، ولا سيما مع تلك الخصلة الشقراء من شعرها التي كانت تشير إلى أنها أمريكية الأصل مما جعل الرجال يلتفتون لمشيتها الرشيقة إلى جوار القطار. دخلت عربة كُتب عليها أن اتجاهها من باريس إلى إسطنبول، وهناك قادها مفتش العربة إلى مقصورتها رقم ٦، وفي أثناء سيرها في العربة كادت تصطدم برجل طويل القامة طيّب الملامح كان خارجاً من المقصورة المجاورة لمقصورتها.

فحص المفتش المقصورة في الوقت الذي كان فيه الحمّال يرتّب الحقائب فيها، في حين جلست هي ووضعت إلى جوارها حقيبة يدها الصغيرة، ورغم حرارة الجو داخل المقصورة فقد بقيت مرتدية معطفها الثقيل وبقيت تنظر خارج النافذة شاردة.

كان باعة الصحف والمياه الغازية وغيرها منتشرين على الرصيف عارضين بضائعهم، ولكنها كانت لاهية عنهم بادية

الحزن. ثم فوجئت بصوت المفتش يقول لها بلهجة مهذّبة: جواز سفرك يا سيدة إلسي.

فانتبهت من شرودها وأخرجت الجواز من حقيبتها وأعطته له فقال: سأُتمّ الإجراءات بنفسي لأنني سأبقى معك حتى إسطنبول.

فأخرجت له خمسين فرنكاً قبلها منها ببساطة ثم أخبرته بالوقت الذي تحب أن تكون فيه المقصورة جاهزة للنوم، ثم سمعت صوت خادم المطعم وهو ينادي معلناً بدء موعد العشاء فخرجت من مقصورتها بعد أن خلعت معطفها الثمين والتقطت حقيبتَي يدها وجواهرها، وعندما خرجت فوجئت بخادم المطعم عائداً حتى كادت تصطدم به لولا أنها تراجعت خطوتين إلى الوراء، مما جعلها تدخل إلى المقصورة المجاورة لها، وحين عبر الخادم عادت للخروج، ولكن قبل أن تخرج لمحت عيناها داخل المقصورة حقيبة بالية الجوانب مكتظة بالأوراق وقد لُصقت فوقها بطاقة مكتوب عليها: «باركر باين، مسافر إلى إسطنبول»، فأصابتها الدهشة لحظة ثم عادت إلى مقصورتها لتلتقط صحيفة كانت فوق المنضدة مع عدد من المجلات والصحف، فجَرت عيناها تستعرضان عمود الإعلانات في الصفحة الأولى حتى رأت ما كانت تبحث عنه.

وسألت الخادم عن شيء ما فقادها إلى مائدة لشخصين كان يجلس إليها ذلك الشخص الذي كادت تصطدم به في العربة، وهو نفسه صاحب الحقيبة بالية الجوانب. نظرت إلى

ملامحه الطيبة وهي في عجب من ذلك الإحساس بالثقة الذي غمرها نحوه. وفي أثناء تناولهما الطعام لم ينطق بكلمة معها حتى بدآ في تناول الفاكهة فقال: التدفئة في القطار شديدة.

- أجل، ليتهم يفتحون النوافذ لبعض الوقت.

- سيحتجّ كل من في القطار على هذا.

وعاد الحديث ينقطع بينهما حتى تناولا القهوة ودفع كلاهما حسابه، فقالت وهي تستجمع شجاعتها: اعذرني إن كنت قد قرأت اسمك على حقيبتك. هل أنت...؟

وصمتت بتردد فقال مبتسماً: أظنني هو.

فقالت: هذه مصادفة غريبة!

- ولكنني لا أراها غريبة أبداً.

ثم قال لها وهو ينظر في عينيها: هل أنتِ تعيسة؟

فقالت بارتباك: أنا...

- قولك إنها مصادفة غريبة معناه أنك تعيسة.

فقالت وقد شعرت بالراحة لجلوسها معه: أجل، أنا على الأقل قلقة.

فشعر بالشفقة عليها في حين قالت مردفة: حدث في حياتي أمر عجيب لست أدري كيف أتصرف فيه.

- فلتقصّي عليّ كل شيء من البداية يا سيدتي.

تذكّرت أنها كانت تسخر كثيراً من إعلانه هي وزوجها إدوارد، ولم تكن تدري أنها ستلجأ يوماً إلى صاحب الإعلان. ظنت لحظة أنه من الممكن أن يكون محتالاً، ولكن مظهره الموحي بالثقة جعلها تنسى تلك الفكرة، ثم قررت مصارحته لتتخلص من قلقها فقالت: حسناً يا سيد باين. أنا في طريقي إلى إسطنبول لألحق بزوجي الذي لديه أعمال كثيرة في الشرق اضطره للسفر منذ أسبوعين، وقد أعدّ كل شيء لألحق به، وأنا كنت في غاية الشوق للحاق به لأنني لم أسافر إلى الخارج قَط، فقط ستة أشهر في إنكلترا. نحن أمريكيان وقد تزوجنا منذ عام ونصف العام ونعيش في غاية السعادة. زوجي ليس مرحاً جداً، ولكنه طيب القلب جداً.

التقطت أنفاسها ثم عادت تتابع: كنت أكتب له خطاباً بعد سفره بأسبوع فوجدت نشافة الحبر جافّة إلاّ أسطراً قليلة، وبدافع الفضول البوليسي الذي تولّد من قراءة روايات المغامرات قربتها من المرآة لأعرف ما كان مكتوباً عليها. صدقني لم أكن أتجسس عليه، بل كان الأمر مجرد لعبة.

- أفهم هذا يا سيدتي. استمري.

- كان الكلام واضحاً، قرأت كلمة «زوجة» و«قطار سمبلون السريع» و«وربما كان أفضل وقت هو قبل أن يصل القطار إلى فينيسيا»...

- غريب بالفعل! هل كانت بخط زوجك؟

- بالطبع، وقد فكّرت كثيراً فيما يمكن أن يجعله يكتب

هذا الكلام.

- ما يقلق بالفعل هو جملة «وربما كان أفضل وقت هو قبل أن يصل القطار إلى فينيسيا».

فسألته بأمل: ماذا أفعل؟

- علينا انتظار وصول القطار إلى فينيسيا غداً في الثانية وسبع وعشرين دقيقة بعد الظهر.

ثم قال لها بنظرة مُطَمْئنة: دعي كل شيء لي.

* * *

في الثانية وخمس دقائق كان القطار قد تأخر إحدى عشرة دقيقة، وكان السيد باين يجلس مع السيدة إلسي جيفريز في مقصورتها، وكانت الرحلة ممتعة تماماً لكليهما ولكن الوقت كان قد حان للوصول إلى فينيسيا، فنظرت السيدة إلسي إلى السيد باين بقلق فقال: لا تخافي فأنت في أمان تام هنا.

ولم يكَد يتم جملته حتى انطلقت صرخة شديدة من الممر وارتفع صوت يقول إن النيران اشتعلت في القطار، فخرج الاثنان إلى الممر بسرعة ليجدا امرأة بدينة فزعة تشير إلى مؤخرة القطار حيث كان الدخان الكثيف ينبعث من المقصورة الأولى، فجاء مفتش القطار عدواً وقال: أرجوا عدم الانزعاج، المقصورة خالية وسنسيطر على الوضع.

كان القطار يعبر ما بين الجزيرة التي أقيمت عليها فينيسيا

وشبه الجزيرة الإيطالية، وكان السيد باين يعقد حاجبيه، ثم التفت فجأة واتجه نحو مقصورة السيدة إلسي حيث وجد تلك السيدة البدينة تجلس ملتقطة أنفاسها إلى جوار النافذة المفتوحة فقال لها: سيدتي، ليست هذه مقصورتك.

- اعذرني يا سيدي؛ فقلبي ضعيف والصدمة قد أتعبتني.

كان من الواضح أنها تتنفس بصعوبة فقال لها: الحريق بسيط يا سيدتي.

- حقاً؟ لقد طمأنتَني. سأعود إلى مقصورتي إذن.

- بل ستبقين هنا بعض الوقت.

- سيدي، هذه إهانة لا أقبلها.

في تلك اللحظة عادت إلسي إلى المقصورة قائلة: يا للسخافة! لقد كانت قنبلة دخان ألقاها شخص سخيف ومفتش القطار ثائر ويستجوب الجميع.

ثم توقفت عن الكلام حين لمحت السيدة البدينة فقال لها السيد باين: ماذا تحملين في حقيبتك الحمراء الصغيرة؟

- جواهري.

- أرجو أن تتأكدي من أنها لا ينقصها شيء.

فأخذت السيدة البدينة تسب السيد باين بالفرنسية غاضبة، في حين قالت إلسي التي فتشت حقيبتها: رباه!

الحقيبة مفتوحة وقد ضاعت منها الجواهر. كلها! ماذا سنفعل يا سيد باين؟!

- عليك باستدعاء مفتش القطار وسوف أستبقي هذه السيدة هنا.

عادت السيدة تسبّه في حين كانت سرعة القطار تقلّ وهو يقف على رصيف محطة فينيسيا. وفي نصف الساعة التالية حدث الكثير من الأشياء، حيث تحدث السيد باين إلى بعض المسؤولين عن أمن القطار بعدد من اللغات الحية، وقد وافقت السيدة البدينة على تفتيشها ولكن لم يكن معها شيء.

وفي الطريق من فينسيا إلى تريستا كان السيد باين يناقش السيدة إلسي في الموضوع، وسألها عن آخر مرة رأت فيها الجواهر فأجابته: صباح اليوم عندما كنت أقوم بتغيير قرطي.

- وهل كانت جميع الجواهر موجودة؟

- نعم، إلاّ إذا كانت قطعة صغيرة مثلاً غير موجودة فلم ألحظ ذلك.

- ألا يمكن أن يكون الخادم وهو يرتب المقصورة...؟

- لقد كانت معي في عربة المطعم. لم أترك حقيبة الجواهر قَط إلاّ عندما خرجنا نحو ذلك الحريق المزعوم.

- معنى هذا أن تلك السيدة هي السارقة.

ولكنها لم تبقَ هنا أكثر من دقيقة ونصف دقيقة، وهذا لا

يكفي أكثر من أن تفتح الحقيبة بمفتاح مقلَّد وتأخذ ما فيها، ولكن أين ذهبت بما فيها بعد ذلك؟!

- ربما أعطتها لشخص آخَر.

- لا، فقد ذهبتُ إلى المقصورة مباشرة، وكنت أستطيع أن أرى أيّ شخصي آخَر يخرج منها.

- ربما ألقَتها لشخص ما من النافذة.

- ولكن القطار كان يعبر البحر من فوق الجسر.

- ربما خبّأَتها في العربة.

- فلنبحث عنها إذن.

وبدآ البحث، وكانت هي تبحث بحماس وهو بغير اهتمام واضح، فسألته عن السبب في ذلك فقال إنه من المفترَض أن يرسل برقية هامة من تريستا، فقبلت عذره ببرود فسألها بلهجة متواضعة: هل أنتِ متضايقة منّي يا سيدة جيفريز؟

- أرى أنك لم تنجح في مهمتك.

- سيدتي، أنا لست شرطياً سرّيا بل أنا متخصص في القلوب فقط.

- أنا كنتُ بالفعل تعيسة إلى حد ما عندما ركبت القطار، ولكنني الآن في حالة لا يمكن وصفها، حتى إنني أكاد أنفجر في البكاء. لقد ضاعت جواهري وفيها خاتمي الزمرّدي الذي أهدانيه إدوارد عند خطبتنا!

- لكنك بالتأكيد أمّنتِ عليها ضد السرقة؟

- أعتقد هذا، ولكن القيمة المعنوية ضاعت.

في تلك اللحظة كان القطار قد بدأ يهدّئ سرعته فقال السيد باين: لقد وصلنا إلى تريستا، وعليّ الآن إرسال البرقية.

* * *

كانت السعادة تملأ وجه السيدة إلسي حين رأت زوجها يسرع نحوها على رصيف إسطنبول، ونسيت جواهرها المسروقة والكلمات الغريبة التي كانت قرأتها على نشافة الحبر وانطلقت نحوه فرحة بعد غيابه عنها أسبوعين.

وحين كانا يهمّان بمغادرة المحطة فوجئت بالسيد باين يربت على كتفها، فالتفتت له وقدّمته لزوجها بارتباك، فقال لها السيد باين: أرجو أن تحضري لمقابلتي في فندق توكاتليان بعد نصف ساعة. أظن أن لديّ أخباراً تهمك.

ثم نظر إلى السيد إدوارد قائلاً: أظن أن زوجتك أبرقت إليك بخبر سرقة جواهرها، وأظن أنه بعد نصف ساعة ستكون عندي أخبار جديدة لكما.

فنظرت إلى زوجها تستشيره فقال: أفضّل أن تذهبي يا عزيزتي. ثم نظر إلى السيد باركر باين وقال: ستكون زوجتي هناك في الموعد الذي حددتَه.

* * *

في الموعد المحدد كانت السيدة في غرفة الاستقبال في جناح السيد باركر باين في الفندق وكان يقول لها: كنتِ تظنين أنني خيبت ظنك، ولكنني فعلت كل ما كنت أستطيعه، فلا تظني أني ساحر.

ثم وضع أمامها علبة من الورق المقوّى وفتحها قائلاً: ها هو كل شيء.

فقالت بدهشة وذهول: سيد باين، أنت رجل مدهش!

- يسعدني أن أكون عند حسن ظنك بي.

- أرجوك، لا تُشعرني بالذنب يا سيد باين. ولكن كيف أعدت الجواهر؟

- هذه قصة طويلة ربما قصصتها عليك يوماً ما، ولكن لا يمكنني أن أقصها عليك الآن.

- لماذا؟

- لديّ أسبابي.

فخرجت من عنده دون أن تدري شيئاً عن القصة، في حين وضع السيد باركر باين قبعته ونزل إلى الشارع وبقي سائراً حتى وصل إلى مقهى صغير مشرف على القرن الذهبي، فنظر إلى مآذن إسطنبول التي جعلتها شمس الغروب تميل إلى الاحمرار بشكل جذّاب. جلس على مقعد وطلب قدحين من القهوة التركية ثم راح يحتسي أحدهما حتى وصل شخص قعد

في المقعد المواجه له، وكان الرجل هو السيد إدوارد جيفريز زوج إلسي. قال له السيد باين مشيراً إلى قدح القهوة الثاني: قدح القهوة هذا لك.

فدفع إدوارد الفنجان جانباً وقال: كيف عرفت؟

فبقي السيد باين يحتسي قدحه وهو يقول: هل أخبرتك زوجتك بالكلمات التي قرأتها على نشافة الحبر؟

- لا، أي كلمات؟!

- أظنها نسيت، ولكنها ستخبرك بالتأكيد.

ذكر له تلك الكلمات التي قرأتها زوجته على نشافة الحبر ثم قال: وهذا يتناسب تماماً مع ذلك الحادث الذي حدث قبل الوصول إلى فينيسيا. لقد خمّنت أنك تريد لهدف ما أو لسبب ما أن تسرق الجواهر، لكن جملة «وربما كان أفضل وقت هو قبل أن يصل القطار إلى فينيسيا» لم تكن ذات معنى، وكان من الأفضل أن تترك لتلك المرأة البدينة تحديد الوقت والمكان المناسبَين. وفجأة اتضح كل شيء في ذهني وكأنه فيلم سينمائي يُعرض ببطء. كنت قد سرقت جواهر زوجتك قبل سفرك من لندن لهدف ما، ولأن ضميرك لم يسمح لك بظلم أحد فقد عملت على ألاّ يُتهم أحد (من الخدم مثلاً) بالسرقة، ولهذا عملت على أن تحدث السرقة بالفعل بطريقة تبعد الشبهة عمّن تعرفهم. أعطيت تلك المرأة نسخة من مفتاح صندوق الجواهر وقنبلة دخان لتطلقها فتثير الذعر ثم تدخل مقصورة زوجتك وتلقي الجواهر المزيَّفة في البحر، وهذا سر اختيارك

لهذا المكان، وبالطبع عند تفتيشها لن يوجد معها شيء فتسقط عنها التهمة، وفي نفس الوقت تكون أنت قد تدبّرت أمر بيع الجواهر الحقيقية هنا، ولكن وصلَتك برقيتي في الوقت المناسب وتركت الجواهر في الفندق باسمي حسبما طلبت منك... وما كنت لأتردد في إبلاغ الشرطة لو لم تفعل.

فقال له إدوارد مستعطفاً: أظنك تحسبني لصاً كأي لص.

- بالعكس، بل أظن من طباعك أنك رجل شريف، وأتمنّى أن تقص عليّ القصة من أولها.

- حسناً، الأمر كله ابتزاز. إن زوجتي امرأة طاهرة نقية، ولو عرفت شيئاً ارتكبته قبل زواجي لهجرتني فوراً.

- ما الأمر يا صديقي؟ هل هي علاقة بامرأة أخرى؟

- نعم، قبل زواجي بالطبع. كانت امرأة جميلة اسمها السيدة روسيتر وكان زوجها رجلاً شرساً عنيفاً، وقد هددها ذات ليلة فهربت إلى غرفتي وطلبت البقاء حتى الصباح، ولم أستطع مقاومة جاذبيتها!

فقال السيد باين متنهّداً: خدعوك بنفس الخدعة القديمة! غالباً تنجح هذه الخدعة الحقيرة مع ذوي الشهامة من الشباب، وبالطبع ضيّقوا عليك الخناق بعد علمهم بزواجك.

- أجل؛ أرسلوا إليّ خطاباً بأن أرسل مبلغاً من المال وإلاّ فسوف يخبرون زوجتي بأنني خدعت تلك المرأة. كنت

حائراً عاجزاً ولا أدري كيف أتصرف فدفعت لهما ما طلباه، ولكنهما لم يتوقفاً بل بقيا يطلبان ما بين وقت وآخَر. وفي المرة الأخيرة لم يكن بمقدوري التصرف في المال المطلوب ولهذا فكرت في ارتكاب هذه السرقة. ولكن كيف أتصرف الآن يا سيد باين؟

فأجابه بحزم: حسناً، سأتولى أنا أمر هؤلاء الحثالة، ولكن عليك أن تعود لزوجتك وتخبرها بكل شيء...

- ولكن يا سيد باين...

- عزيزي جيفريز، أنت لا تفهم النساء جيداً. صدقني يا عزيزي، زوجتك تحبك أكثر من أي شيء في حياتها، فاعترف لها بكل شيء وأخبرها أنك منذ أحببتها هجرتَ حياتك القديمة غير النقية، حتى إنك سرقت لتحول دون معرفتها بالأمر، وسوف تسامحك على كل شيء.

- وماذا لو لم يكن هناك ما يستدعي التسامح؟

- عزيزي إدوارد، من حقائق الحياة الكذب على الزوجات، وسوف تسعد هي بهذا! هيّا يا رجل، اعترف لها واكسب غفرانها وستبقيان سعيدَين مدى الحياة؛ ستنتبه زوجتك جيداً كلما مرت أمامك امرأة جميلة، ولا أظن هذا يضيرك في شيء.

- لا أريد امرأة سواها.

- عظيم، ولكن لا تخبرها بذلك.

- هل تظن حقاً...؟

- أنا أعرف تماماً ما أقول.

* * *

باب بغداد

وقف السيد باين أمام فندق الأورينتال بدمشق الذي وقفت أمامه حافلة فاخرة كانت ستقله مع أحد عشر شخصاً آخَرين إلى بغداد صباح اليوم التالي عبر الصحراء. كان ذلك السفر في الماضي منهكاً لأنه كان يُقطَع في ثلاثة أيام عبر أربعمئة ميل من الصحراء القاحلة، ولكن الحافلة الآن تقطعها في يوم ونصف اليوم لا غير.

سمع السيد باين صوت الآنسة نيتا برايس أصغر وأجمل السائحات والتي كانت ترافق عمتها العجوز الشكاكة في الرجال، سمعها تقول له: ماذا يدور بذهنك يا سيد باين؟

وإلى جوارها وقف ثلاثة رجال يبدو من زيّهم أنهم يعملون في سلاح الطيران، وكان أحدهم (واسمه أوروورك) معجباً بنيتا، فقال: ما زال لدينا العديد من المغامرات في هذه الرحلة.

فقالت نيتا: فلنذهب لزيارة بعض الأماكن.

فتصفّحت عمتها الدليل السياحي في حين قالت نيتا لأوروورك وهي تبتعد عن عمتها بحذر: عمتي ستفضّل زيارة الأماكن الأثرية، ولكنني أريد زيارة الأسواق.

- فلتأتي معي إذن وسنقضي جولة جميلة.

ثم ابتعدا عن المجموعة في حين نظر السيد باين إلى رجل يبدو عليه الهدوء يقف إلى جانبه، وكان يعمل في مصلحة الأشغال في بغداد، قال له: تبدو دمشق جذّابة منذ الزيارة الأولى يا سيد هنسلي.

فهزّ السيد هنسلي رأسه موفقاً دون كلام، في حين انضمّ إليهما شاب صبوح الوجه قلق الملامح كان زميل هنسلي في عمله، فسأله هنسلي: هل ضاع منك شيء يا سميثهرست؟

- لا، بل أنا أتجول فقط.

بدآ يتجولان معاً في حين بقي السيد باين يقرأ في صحيفة محلية فرنسية اللغة، ولم تجذب اهتمامه لأن معظمها كان أخباراً محلية عادية، ولكنه وجد مجموعة أخبار قصيرة عن لندن كان أحدها عن رجل الأعمال صمويل لونغ الذي قام بابتزاز نحو ثلاثة ملايين جنيه وكان يتجه إلى أمريكا اللاتينية، فقال السيد باين في نفسه: هذا جيّد بالنسبة لرجل لم يتعدّ الثالثة والثلاثين.

فقال رجل إيطالي كان يقف إلى جواره: ماذا تقول؟

أعاد السيد باين قوله على زميله الإيطالي السيد بولي، فقال السيد بولي: إنه بالفعل عريق في الإجرام، ونحن في إيطاليا عانينا الكثير بسببه ولكنه في البداية كان حسن السيرة.

- لقد درس في جامعة أكسفورد.

- أتظنهم يستطيعون القبض عليه؟

- يتوقف هذا على المكان الذي يوجد فيه الآن.

فقال الإيطالي ضاحكاً: من الممكن أن يكون معنا.

فقال السيد باين جادّاً: وما المانع؟ ألا يمكن أن أكون أنا هو؟

فتردد الرجل هنيهة ثم قال مبتسماً: ولكن أنت...

- لا تحكم على الأمور بالمظاهر يا سيد بولي؛ يستطيع المرء تغيير مظهره وسنّه ولونه وجنسيته ببساطة وسهولة.

فتركه الرجل متشككاً وهو لا يدري متى يكون الإنكليز جادّين ومتى يكونون هازلين.

* * *

في المساء أمضى السيد باين سهرته في دار عرض سينمائي ثم في مقهى، وهناك أحس بضيق شديد من الملل الذي كان يخيم على المكان. وفجأة لمح سميثهرست الذي كان جالساً وحده محتقن الوجه فذهب إليه السيد باين ليجلس معه، فقال له سميثهرست: هؤلاء الفتيات غريبات الشأن! أدعو إحداهنّ إلى شرب كوب من القهوة فتتركني لتذهب مع آخَر! أليس هذا تصرفاً حقيراً؟

فابتسم السيد باين وهو يقول: دعك من هذا ولنشرب القهوة معاً.

- لا، لا أريد شرب أي شيء الآن. لو أنك كنت في مثل

ورطتي فكيف كنت تتصرف؟ أنا لا أريد أن أتخلى عن صديقي ولكنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً.

ثم نظر إلى السيد باركر باين بدهشة وقال: من أنت؟ وما عملك؟

- عملي أن أكسب ثقة الناس.

- أنت أيضاً؟

فأخرج السيد باين من جيب سترته ورقة من جريدة كان عليها إعلانه، فاستغرق سميثهرست وقتاً طويلاً حتى استطاع أن يقرأ ما فيها ثم قال: تباً لك! أتطلب من الناس أن يزوروك ليقصّوا عليك مشكلاتهم.

- لولا ثقتهم بي لما فعلوا.

- بالتأكيد كل عملائك نساء حمقاوات.

- فيهم رجال أيضاً. ولكن ماذا عن النصيحة التي كنت تنشدها منذ لحظات؟

رد الشاب بجفاء: هذا شأني وحدي!

فتركه السيد باركر باين وقد يئس منه.

* * *

في السابعة صباحاً انطلقت الحافلة متجهة نحو بغداد، وكان في الحافلة أحد عشر شخصاً هم السيد باركر باين والسيد بولي الإيطالي والآنسة برايس وعمّتها والطيّارون

الثلاثة وسميثهرست وهنسلي، بالإضافة إلى امرأة أرمنية اسمها السيدة بنتميان يصحبها ابنها.

كانت الرحلة طبيعية، ولكن بعد أن ابتعدوا عن دمشق كانت الغيوم تملأ السماء، وكان السائق قلقاً من ذلك الأمر حتى إنه قال لهنسلي: أرجو ألاّ يسبب لنا المطر أي إزعاج.

عند انتصاف النهار توقفت الحافلة ليتناولوا غداءهم في حين كان السائقان يصنعان الشاي للمسافرين، وبعد الغداء والشاي استُؤنفت الرحلة في صحراء شاسعة لا نهاية لها.

وعند غروب الشمس كانوا قد وصلوا إلى قلعة الرطبة، وهناك دخلت الحافلة إلى فناء القلعة الضخم. وارتاح الجميع من عناء السفر ثم أبدت نيتا رغبتها الملحّة في التنزّه، فصحبها السيد باين والسيد أوروك، في حين رجاهم مدير الرحلة ألاّ يتأخروا لأن الظلام يوشك أن يعمّ المكان. فانطلقوا يمشون في نزهة غير مثيرة بسبب تشابه أرجاء الصحراء بعضها ببعض، وفي أثناء سيرهم انحنى السيد باين يلتقط حجراً من الأرض فسألته نيتا بلهفة: ما هذا يا سيد باين؟

- هذا حجر صوان يا عزيزتي من العصر الحجري.

- هل كان يُستخدم في القتل؟

- أظنه كان يُستخدم في أغراض سلمية فقط، ولكن من الممكن استخدامه في القتل، فالأساس هو الرغبة في القتل ثم يمكن تدبير الأداة بأي شكل.

ثم بدؤوا رحلة العودة لأن الظلام كان قد بدأ يحلّ، وحين وصلوا إلى القلعة جلس الجميع يتناولون العشاء، ثم بدؤوا يتسامرون حتى استؤنفت الرحلة في منتصف الليل. وقد كان السائق قلقاً بسبب وجود بعض الحفر التي يُخشى أن تغرس فيها الحافلة.

كانت نيتا تشعر بالضيق لعدم استطاعتها الوصول إلى حقيبتها لتأخذ منها خفَّيها، فنصحها سميثهرست بأن ترتدي حذاء مناسباً للمطر لاحتمال وقوعهم في الوحل، فقالت بذعر: حقاً! وأنا ليس لديّ سوى جورب واحد!

- لا تقلقي يا عزيزتي؛ سينزل الرجال لدفع الحافلة في حال انغراسها في الوحل.

مضت الحافلة في حركتها مستأنفة رحلتها الطويلة في ذلك الطقس الرديء والطريق المتعب. كان السيد باين جالساً في مقعد أماميّ وبجواره عبر الممر تجلس السيدة الأرمنية وهي تلتف في بطانية، وكان ابنها يجلس خلفها، وخلف السيد باين جلست الآنسة نيتا وعمتها، في حين جلس بولي وسميثهرست وهنسلي والطيارون الثلاثة في المقاعد الخلفية.

في أثناء انطلاق الحافلة كان الجميع نياماً فيما عدا السيد باين لأن مقعده لم يكن مريحاً، وحتى حين كان النعاس يراوده كانت المطبّات تحول دون استغراقه في النوم في حين كان الآخَرون يُبدون اعتراضات مزمجرة وهم بين النوم واليقظة.

وفجأة استيقظ الجميع إثر انغراس السيارة في الوحل

وتوقّفها تماماً، فنزل السيد باين مع بعض الرجال لدفعها، وكان المطر قد توقف والقمر ساطعاً. انهمك السائقان في وضع الأحجار وراء عجلات السيارة لتثبيت الرافعة ودفع العجل لأعلى، وكان الرجال يساعدونهما بكل طاقتهم في حين كانت النساء يشاهدنهم من نوافذ الحافلة. وفجأة صاح أوروورك: لماذا لا يحضر الفتى الأرمني لمساعدتنا؟

وقال بولي: وماذا عن الكابتن سميثهرست؟ انظروا، مازال نائماً هو الآخر.

وبالفعل كان سميثهرست في مقعده منحني الرأس مائل الجسد مرتخي العضلات، فقال أوروك بغضب: سأوقظه.

وأسرع نحو الحافلة وصعدها، ثم عاد بعد لحظات يقول باضطراب وتوتر: يبدو أن سميثهرست مريض. هل معنا طبيب؟

كان السيد لوفتوس قائد الرحلة طبيباً في سلاح الطيران، وكان رجلاً أشيب الشعر حسن الطباع فسأل أوروورك: ماذا به يا سيد أوروورك؟

- لست أدري.

فدخل الطبيب السيارة ووراءه أوروورك والسيد باين، وانحنى الطبيب فوق جسد سميثهرست المرتخي، ثم عاد ليقف ويقول بعد فحص قصير: لقد مات.

وهنا بدأت حالة من الفزع بين النساء وبدأت الأسئلة

تتوارد على ألسنة الرجال عن سبب الموت وكيفيته، فقال لوفتوس: محتمَل أن يكون رأسه قد اصطدم بسقف الحافلة في أثناء المرور من فوق أحد المطبات.

فقال السيد باين: لا يمكن أن يكون هذا هو السبب. هناك بالتأكيد تفسير آخَر.

- إذن يجب فحصه جيداً.

كان السائق شاباً قوياً فطلب منه السيد باين حمل النساء الثلاثة والعبور بهنّ من الحفرة إلى مكان جاف، فحملهن السائق واحدة واحدة وتمّ إخلاء الحافلة ليجري الطبيب فحصه على الجثة في حين عاد الرجال يحاولون إخراج الحافلة من مأزقها في الوحل.

* * *

بدأت الشمس تشرق والوحل يجف، في حين كانت السيارة لا تزال منغرسة، وقد كُسرت ثلاث روافع دون جدوى، وبدأ السائقان يُعدّان الفطور.

قال لوفتوس بعد أن قام بالفحص: ليست به علامات ولا جروح، وفي الأغلب اصطدم رأسه بسقف السيارة عند المرور فوق مطب.

فسألها السيد باين بلهجة ذات مغزى: هل أنت على يقين من أن الوفاة طبيعية؟

فنظر لوفتوس إليه لحظة ثم قال: هناك احتمال ما أن

يكون شخص قد ضربه على رأسه بشيء ثقيل... كيس من الرمل مثلاً.

فقال أحد الطيارين واسمه ويليامسون: لا يمكن أن يحدث هذا دون أن نرى الفاعل.

- ربما كنّا نائمين حين فعل هذا.

- لا يمكن للفاعل أن يتأكد من أن الجميع نائمون.

فقال بولي: ليس هناك إلاّ أن يكون الفاعل جالساً خلفه مباشرة.

- ومن كان يجلس خلفه؟

فقال أورورك: هنسلي، ومن المستحيل أن يكون هو الفاعل؛ لقد كان أعز أصدقائه.

فقال السيد باين: أظن أن السيد ويليامسون لديه ما ينبغي أن يخبرنا به.

فقال ويليامسون: أنا؟ أنا...

فقال أورورك صائحاً: تكلم يا رجل، فوراً.

- لا شيء، أعني لا شيء يستحق الذكر.

- قلت لك تكلم دون إبطاء.

- لقد... لقد سمعت جانباً من حديث بين سميثهرست وشخص آخَر في القلعة حين عدت إلى الحافلة لأحضر علبة

التبغ. كان سميثهرست يتحدث عن عدم التخلي عن الأصدقاء وكان يبدو مكروباً، ثم قال إنه سيسكت إلى أن نصل إلى بغداد ولكنه هدد بعدم السكوت لحظة واحدة بعد ذلك.

- من كان الشخص الآخَر؟

- لا أدري؛ لقد كان الظلام شديداً كما أنه لم يتكلم أكثر من كلمتين أو ثلاث لم أسمعها جيداً.

فقال السيد باين: أيكم يعرف السيد سميثهرست جيداً؟

قال أورورك: أعتقد أن أكثرنا قرباً منه ومعرفة به هو هنسلي. أنا أعرفه معرفة عادية، ووليامسون لم يعرفه إلاّ في الرحلة، ومثله قائد السرب السيد لوفتوس، ولا أظن أن أحد الباقين عرفه قبل الرحلة.

فقال السيد باين: وماذا عنك يا سيد بولي؟

فأجابه الرجل: لم أقابله إلاّ عند ركوبنا السيارة من بيروت إلى دمشق.

- وماذا عن الفتى الأرمني؟

فأجابه أورورك: لا يمكن أن يكون مثل هذا الفتى صديقاً لمثل سميثهرست.

فقال السيد باين: أظن أن لديّ شيئاً يجب أن أخبركم به.

ثم روى لهم الحوار الذي دار بينه وبين سميثهرست في

الحانة بدمشق، فقال الطبيب وهو يسعل: من الممكن جداً ألاّ يكون لهذا الأمر علاقة بالموضوع، ولكنني سمعته يقول لهنسلي: ربما كانت الأخبار تتسرب من القسم الذي يتبعك.

فسأله السيد باين: متى كان هذا؟

- قبل أن نترك دمشق أمس. كنت أظنهما يتناقشان في عملهما ولم أظن قط أن...

ولم يكمل جملته التي لم تكن تحتاج لتكملة فقال السيد باين: لقد تحدّثت عن كيس من الرمل في موضوع القتل، فهل يمكن أن يصنع شخص ما شيئاً شبيهاً لهذا؟

- الرمال في كل مكان.

وأكمل أوروك: ويمكن أن يوضع الرمل في فردة جورب مثلاً.

وصمت أوروك بتردد، وقد تذكّر الجميع أن هنسلي ذكر سابقاً أنه يحتفظ بجورب احتياطي في جيبه. فقال السيد باين: أذكر أنه كان يحتفظ به في جيب معطفه، وهذا المعطف موجود في الحافلة الآن.

كان هنسلي يتمشى بعيداً عنهم وهو يفكر بعمق، وقد احترموا شعوره حيال صديقه، فسأل السيد باين السيد لوفتوس: هل يمكن أن تحضر الجورب من الحافلة يا سيدي؟

- أنا لا أحب هذا، وأظننا لا نحسن التصرف بذلك.

- سيد لوفتوس، الظروف غير عادية ويجب معرفة الحقيقة، وهذا الأمر مفيد فيما نحن فيه.

فذهب لوفتوس إلى الحافلة في حين قال السيد باين للسيد بولي بعد أن انتحى به جانباً: كنتَ أنت الجالس على المقعد المجاور لسميثهرست، فهل رأيت أحداً يترك مكانه؟

- العجوز بيرس ذهبَت إلى دورة المياه في مؤخرة الحافلة.

- هل كانت تتعثر في مشيتها؟

- نعم، بسبب حركة السيارة الطبيعية.

- هل رأيت سواها؟

- لا.

ثم استدرك بدهشة: ولكن من أنت لتتصرف كما لو كنت قائد الرحلة. أنت لستَ رجلاً عسكرياً.

- ولكن لي في الحياة تجارب عديدة.

- بالتأكيد سافرتَ كثيراً، أليس كذلك؟

- بل أمضيت حياتي كلها في مكتبي.

في تلك اللحظة عاد لوفتوس بالجورب الذي أخذه منه السيد باين ليفحصه، فوجد في إحدى فردتَيه قليلاً من الرمل الرطب العالق بقماش الجورب فقال: حسناً، لقد عرفت كل

شيء الآن.

ثم نظر إلى هنسلي الذي كان لا يزال يتمشى مفكّراً بعيداً عن الجميع وقال: هل لي أن أفحص الجثة بنفسي؟

وافق الطبيب مرتبكاً، وذهبا إلى الجثة حيث رفع الطبيب الغطاء من فوقها قائلاً: لا شيء يستحق الفحص.

فنظر السيد باين إلى ربطة عنق الرجل الميت وقال: كان سميثهرست من خريجي كلية إيتون إذن؟

فدُهش الطبيب في حين سأله السيد باين ليزيد من دهشته: ما معلوماتك عن السيد ويليامسون؟

- لا شيء. لقد قابلته في بيروت حين كنت عائداً من مصر، ولكن لماذا؟!

- ويليامسون هو الوحيد الذي قدّم دليلاً يمكن أن يكون سبباً في شنق شخص ما؛ علينا بالحذر.

كان السيد باين يواصل فحصه لربطة عنق الميت وياقته، ثم هتف بدهشة: هل لاحظت هذا؟

في مؤخرة ياقة القميص كانت هناك بقعة صغيرة من الدم، وقال السيد باين وهو يفحص مؤخرة عنق الجثة: لقد طُعن في مؤخرة جمجمته، وها هو الجرح الصغير.

- يا إلهي! كيف لم ألحظ هذا؟!

- لأنك اقتنعتَ بالرأي القائل إنه ضُرب على رأسه، ومن

السهل عدم ملاحظة جرح كهذا. كانت طعنة سريعة بآلة حادة صغيرة رفيعة تؤدي إلى موت سريع، حتى إن المجني عليه لم يتمكن من الصراخ.

- أتقصد خنجراً مدبَّباً مثلاً؟ هل تعني أن بولي...

فقاطعه السيد باين قائلاً: أعلم أن الخناجر مرتبطة عادة بالإيطاليين، ولكن...

ثم نظر إلى الأفق وقال: أرى سيارة في الأفق.

كانت هناك سيارة قد بدأت تظهر أمامهم، فاتجه إليهم أورورك قائلاً: يمكن للنساء تكملة الرحلة في هذه السيارة القادمة.

فقال السيد باين: وماذا عن القاتل؟

- أتقصد هنسلي؟

- وما الذي جعلك تقول هذا؟

- ذلك الرمل الموجود في جوربه.

- ولكن سميثهرست لم يمت بضربة على رأسه.

نظر إليه أورورك بدهشة فقال له السيد باين: هذه هي الحقيقة يا سيد أورورك. لقد مات سميثهرست مطعوناً.

ثم سكت هنيهة وعاد يكمل قائلاً: من خلال حديثه معي في الحانة واهتمامه بموضوع الثقة في شخص محدد أعود

إلى موضوع ما. لقد ذكرت مرة أن الهارب صامويل لونغ من الممكن أن يكون معنا في نفس الرحلة، فلماذا لا نفترض أن هذا حقيقي؟

- ولكن هذا مستحيل يا سيد باين!

- ولماذا تراه مستحيلاً؟ نحن لا نعرف عن الناس أكثر ممّا هو في جوازات سفرهم وما يقولونه عن أنفسهم، ويمكن للمرء الحصول على جواز سفر مزيف واختلاق قصة ما عن نفسه.

- ولكن سميثهرست لم يكن يعرف لونغ.

- من قال هذا؟ لقد كان سميثهرست خريج كلية إيتون، وكذلك كان لونغ. بالتأكيد عرفه سميثهرست ولم يخبر أحداً، وأيضاً لم يكن يدري كيف يمكن أن يتصرف. وفي النهاية قرر ألاّ يتحدث إلاّ بعد الوصول إلى بغداد.

فقال أورورك بدهشة: أتظن أن لونغ واحد منا؟ أظنه ذلك الإيطالي، أو الأرمني...

فقال السيد باين مبتسماً: من الأسهل أن يبقى إنكليزياً بجواز سفر إنكليزي. هذا بالتأكيد أسهل من التظاهر بأنه أجنبي ومحاولة الحصول على جواز سفر أجنبي.

- أتقصد العمة برايس؟

فقال السيد باين وهو يضع كفه بقوة على رجل يقف بجواره: بل هذا هو رجلنا.

فتضاعفت دهشة أورورك في حين أكمل السيد باين: قائد الرحلة لوفتوس، أو السيد صامويل لونغ.

فقال أورورك: مستحيل! السيد لوفتوس في الخدمة منذ سنوات!

- ولكن أحدكم لم يرَه من قبل، أي أنه ليس لوفتوس الحقيقي.

وهنا قال لوفتوس: يا لك من ذكي! ولكن كيف عرفت هذا؟!

فأجابه السيد باين: أول ما نبّهني هو قرارك بأن سميثهرست مات إثر اصطدام رأسه بسقف الحافلة. بالطبع كان أورورك هو الذي أوحى إليك بتلك الفكرة حين كنّا نتحدث في دمشق ليلة الرحلة، ولأنك الطبيب الوحيد بيننا فقد ظننتَنا سنقتنع بما تقوله، وكان سهلاً أن تجد بين أمتعة لوفتوس آلة طبية مناسبة يمكنك بها أن تقتل سميثهرست في أثناء حديثك معه عند انحناءة بسيطة منك نحوه، وبالطبع لم يكُن أحد ليشك فيك بسبب الظلام. بعد ذلك تُكتشف الجثة وتقول أنت ما قلتَه، ولكن الأمر لم يمض كما خططتَ، فقد كثرت الشكوك، ولذلك لجأتَ إلى خطة أخرى حين سمعت الحديث الذي سمعه ويليامسون فقمت باختلاق حديث سمعتَه، ولكنني عمدت إلى خدعة حين طلبت منك إحضار جورب هنسلي لنعرف الحقيقة، ولكن الحقيقة ليست ما تخيلتَه أنت؛ فقد كنتُ فحصت الجورب قبلك وكان الجورب خالياً تماماً من

الرمل، ثم قمتَ أنت بوضع الرمل فيه.

فقال صامويل لونغ وهو يشعل لفافة: إذن فليس عليّ سوى الاعتراف بالهزيمة بعد أن خانني الحظ. لقد بدأ الحصار يضيق حولي في مصر، وهناك قابلت لوفتوس الذي كان ذاهباً في مهمة ببغداد وعرفت أنه لم يكن يعرف أحداً هناك، وقد رشوتُه بعشرين ألف جنيه. بالطبع هذا مبلغ تافه بالنسبة لي، ولكن القدر دفع بسميثهرست في طريقي. كان شديد الغباء، وقد كان في إيتون يظنني بطلاً ولهذا لم يُخبر أحداً بأمري. لقد حاولت كثيراً أن أثنيه تماماً عن الوشاية بي، وفي النهاية أخبرني أنه لن يقول شيئاً حتى نصل إلى بغداد، فماذا يمكن أن أفعل؟ صدقوني، ليس القتل من طبعي.

وهنا بدأت ملامحه تتقلص، ثم مال في وقفته قليلاً وسقط على الأرض أمامهم، فانحنى أورورك فوقه في حين قال السيد باين: أظن أن لفافته كان فيها حامض البروسيك. لقد خسر آخِر أوراقه فانتحر!

* * *

منزل في شيراز

كان السيد باين يتجه من بغداد إلى إيران في نحو السادسة صباحاً، وكانت الطائرة التي سيستقلها صغيرة ضيقة المقاعد وفيها مسافران غيره، أحدهما رجل ضخم الجثة كثير الثرثرة والآخَر امرأة يبدو عليها العزم والقوة، فقال السيد باين في نفسه: من الواضح أني سأرتاح قليلاً، فهما لا يبدوان في حاجة لمشورتي.

كانت المرأة نشطة سعيدة تنتمي لطائفة المبشرين الأمريكيين، وكان الرجل يعمل في شركة بترول، وتعارَف الجميع قبل أن تقلع الطائرة، وقد عرّف السيد باين نفسه قائلاً إنه سائح يزور طهران وأصفهان وشيراز.

* * *

هبطت بهم الطائرة في كرمان شاه لفحص جوازات سفرهم وبعض الإجراءات الجمركية، وعند فتح حقيبة السيد باين كانت فيها علبة ورقية صغيرة، وقد تعامل معها عاملو المطار بحذر، ولجهل السيد باين باللغة الفارسية لم يستطِع أن يشرح لهم ما فيها، فطلب من الطيّار الألماني أن يخبرهم أن فيها مسحوقاً ضد الحشرات، فلم يفهمه الطيّار إلاّ عندما كلمه بالألمانية، وعندما أخبرهم الطيّار بالأمر ضحكوا جميعاً لما سمعوه.

أقلعت الطائرة بهم من جديد، ثم صلت إلى طهران في الواحدة ظهراً حيث تمّت إجراءات مشابهة للسابقة، وقد بقي الطيّار الألماني مع السيد باين ليجيب على أسئلة لم يفهم السيد باين الكثير منها، وحين سأل الطيارَ عمّا كانوا يريدونه أخبره أنهم لا يريدون إلاّ أية إجابة على أسئلتهم.

* * *

لم يُعجَب السيد باين كثيراً بطهران، وأخبر بذلك الطيار شلاغل عندما قابله صدفة عند عودته إلى الفندق في الليلة التالية، ثم دعاه إلى العشاء فوافق، وعندما جلسا للعشاء سأله الطيار: هل أنت ذاهب إلى شيراز؟

- نعم، وسأذهب من هناك إلى أصفهان ثم أعود إلى طهران بالسيارة. هل ستكون قائد الطائرة غداً إلى شيراز؟

- بل سأعود إلى بغداد.

- منذ متى تعمل هنا؟

- منذ نحو ثلاث سنوات حين بدأ هذا الخط الجوي في العمل، ونحن حتى الآن لم نلاقِ أية حوادث.

بقيا يشربان القهوة والطيار يروي بعض ذكرياته على السيد باين، قال: في أولى رحلاتي على هذا الخط الجوي ركبت معي امرأتان إنكليزيتان، إحداهما كان اسمها الليدي إستر كار ابنة أحد وزراء إنكلترا. وكانت شديدة الجمال ولكن كان بها مسّ من الجنون.

- ماذا تعني؟

- لقد سكنت منزلاً شعبياً في شيراز وهي ترتدي الملابس الشرقية ولا تقابل أوروبيين. هل يليق هذا بسيدة عريقة مثلها؟!

- هناك الكثير من الحالات المشابهة، فهناك مثلاً الليدي هيستر ستانهوب التي...

فقاطعه الطيار: ولكن هذه مجنونة حتماً. إن عينيها كعينَي قائد غواصة كنت أعمل عليها أيام الحرب، وهو الآن نزيل بمستشفى للأمراض العقلية.

تذكّر السيد باين اللورد مايكل ديفر والد الليدي إستر كار الذي كان يعمل معه عندما كان اللورد وزيراً للداخلية. كان قد رأى أمها مرة واحدة، وكانت امرأة أيرلندية فاتنة، ولكن كانت في عائلة كار لوثة من الجنون تظهر في بعض الأحيان. ثم سأله: وماذا عن المرأة الأخرى؟

فأجابه بنبرة غريبة جعلته ينتبه إلى الحديث كثيراً: لقد ماتت. لقد كان قلبي مرهفاً وكانت أجمل امرأة رأتها عيناي، كانت كالزهرة اليانعة. ذهبتُ لزيارة أسرتها في شيراز، وكنت أراها خائفة من شيء ما، وعند عودتي من بغداد في المرة التالية علمت أنها ماتت. ربما قتلتها المرأة الأخرى... لقد كانت مجنونة ولا ريب.

* * *

كان السيد باين يلقي نظرته الأولى إلى شيراز بعد ظهر اليوم التالي، وكانت مدينة شيراز تبدو كالنبتة التي تنبت وسط الصحراء، وقد أعجبته شيراز لبساطتها وبساطة الفندق الذي نزل به، حتى إنه ارتاح لضيق شوارعها. كان أهلها في ذلك الوقت يحتفلون بعيد النيروز الذي يستمر خمسة عشر يوماً للاحتفال بالعام الجديد.

ذات يوم كان يتجول خارج المدينة فزار مقبرة الشاعر حافظ، وعند عودته رأى منزلاً شرقياً مشيداً بالقيشاني الأزرق والأصفر والوردي وتحوطه حديقة مليئة بأشجار الفاكهة، وعند تناوله العشاء مع قنصل إنكلترا في طهران سأله عن صاحب ذلك المنزل فقال له: لقد بناه حاكم لورستان السابق. لقد كان غنياً جداً، ولكن المنزل الآن تسكنه امرأة إنكليزية هي الليدي إستر كار، وهي مجنونة تماماً، لا تريد أن ترى أي شيء ما دام إنكليزياً.

- كم يبلغ عمرها؟

- ما زالت صغيرة على الجنون، فهي في نحو الثلاثين.

- أعتقد أنه كانت معها سيدة إنكليزية أخرى، أظنها ماتت.

- أجل، لقد حدث هذا منذ نحو سنوات ثلاث في ثاني أيام تولّي منصبي.

- كيف ماتت؟

- سقطت من شرفة الطابق الأول. كانت وصيفة الليدي إستر أو صديقتها، وكانت تحمل صينية الفطور ورجعت بها خطوة إلى الخلف فسقطت، ولم نستطِع إسعافها بسبب تحطّم رأسها فوق الصخر.

- ماذا كان اسمها؟

- كنغ أو ويلز... أظنها كنغ، وقد كانت فتاة جميلة.

- وكيف كان رد فعل الليدي إستر نحو الحادث؟

- كانت غريبة الأطوار لا يمكن فهمها، وقوة شخصيتها وبريق عينيها كانا مخيفَين.

كان السيد باين ينظر في الفضاء فسألها القنصل عمّا به فاعتذر السيد باين على شروده، ثم عادا يتحدثان في الكثير من الأمور.

* * *

جلس السيد باين في مساء نفس اليوم يكتب خطاباً على ضوء المصباح الغازي في حجرته، وكان متردداً من حيث طريقة صياغة الخطاب، وفي النهاية كتب: «يشرفني أنا السيد باركر باين أن أهدي تحياتي إلى الليدي إستر كار، وأبلغها أنني مقيم في فندق فارس لمدة ثلاثة أيام إذا رغبت الليدي في استشارتي».

ثم أرفق بالمظروف نسخة من إعلانه وهو يقول في نفسه:

لقد مضى على هذا الموضوع ثلاث سنوات، وأظنني سأنجح الآن.

ثم خلد إلى النوم في سريره غير المريح.

في الرابعة بعد ظهر اليوم التالي جاءه رجل كان من الواضح أنه خادم إيراني برسالة من الليدي إستر كار كتبت فيها: «يسرني أنا الليدي إستر كار أن أستقبل السيد باركر باين في الساعة التاسعة مساء اليوم».

فابتسم السيد باين وقد أدرك أنه نجح في هذه الخطوة الهامة.

* * *

في الموعد المحدد كان السيد باين يطرق باب منزل الليدي إستر، ففتح له البابَ نفسُ الخادم الذي كان قد ذهب له برسالة الليدي، ثم تَقدّمه عبر حديقة مظلمة إلى درَج خلفي حيث عبرا باباً إلى شرفة مكشوفة تحتوي على أريكة مريحة استلقت عليها امرأة رائعة الجمال. بالطبع كانت هي الليدي إستر في ردائها الشرقي الذي كان مناسباً تماماً لجمالها. وأشارت نحو مجموعة من الوسائد موضوعة فوق الأرض وقالت له: تفضل بالقعود يا سيد باين.

فجلس على وسادة وقد شعر أن القعود على الأرض بالنسبة لرجل في مثل حجمه أمر متعب بشدة. كان قد لاحظ أن الليدي إستر تضع في إصبعها خاتماً كبيراً من الزمرّد يحمل

شارة عائلتها، وكان الخاتم ثميناً جداً بحيث يساوي وحده ثروة طائلة.

دخل الخادم عليهما وهو يحمل صينية عليها فنجانان من القهوة، فبدأ السيد باين يحتسي فنجانه. كانت الليدي إستر تتمهل كعادة الشرق، فلم تبدأ حديثها سريعاً بل شربت قهوتها ببطء ثم قالت في النهاية: يقول إعلانك إنك تساعد الناس التعساء.

- أجل.

فقالت بلهجة تحدّ: لماذا أرسلت إعلانك إليّ؟ هل تمارس عملك في الرحلات؟

فأجابها ببساطة: بل أحاول أن أحصل على عطلة خالية من العمل.

- ما سبب إرسالك الإعلان لي إذن؟

- لديّ أسباب تؤكد لي أنك تعيسة.

فبقيت صامتة برهة ثم قالت: هل تظن أن حياتي هنا بعيداً عن أهلي تعني أنني تعيسة؟ كلا يا سيد باين، لقد كنت في إنكلترا كالأسيرة، أما هنا فأنا أحيا بشخصيتي الحقيقي. أنا شرقية، طباعي شرقية، وأحب هذه العزلة. ربما لا تفهمني، ومن الجائز أن تقول إنني... إنني مجنونة.

فقال بثقة واضحة: بل أعلم أنك لست مجنونة.

فقالت بنظرة دهشة: ولكن الجميع يقولون إني مجنونة. هؤلاء الحمقى... ولكنني سعيدة هنا جداً.

- ولكنك طلبتِ منّي أن آتي، فلماذا؟

فهزّت رأسها قائلة: أردت فقط معرفة بعض الأخبار عن إنكلترا، وهذا لا يعني أنني أريد الذهاب إلى هناك، بل أريد أن أعرف ما يجري في ذلك العالَم الذي هجرته.

فأخذ السيد باين يقص عليها أخبار إنكلترا في كل المجالات، أخبار المجتمع والمشاهير والفن والتجارة والأندية والمسارح والجريمة والضواحي الجديدة والزحام... وكان في أسلوبه سلساً منظَّماً مما جعلها تستمتع تماماً بما كان يقوله. كانت قد حنت رأسها متخلّية عن تلك الهالة من الكبرياء وقد بدأت دمعة تنساب من عينها على خدها، وعندما انتهى من حديثه لم تكن تستطيع أن تحتفظ بالمقاومة فانفجرت باكية أمامه، فبقي يرقبها بصمت راضياً بتجربته التي آتت ثمارها بنجاح. ثم رفعت رأسها وقالت بانفعال: هل أنت راض بهذا؟

- أظن أنني كذلك بالفعل.

فقالت بانفعال جارف: كيف يمكنني تحمّل كل هذا بالله عليك؟! أنا لا أرى مخلوقاً هنا. هيّا، قل تلك الجملة الغبية: لماذا لا تعودين إذا كنتِ تعبت؟... قلها.

- أنا أعلم أن العودة ليست سهلة بالنسبة لك.

فبدا الخوف في عينيها وهي تقول: أنت لا تعرف سبب عدم استطاعتي العودة.

- بل أظنني أعرف.

- لا، لا يمكنك تخمين السبب.

- أنا لا أخمّن، بل أراقب وأستنتج.

- بل أنت لا تعرف أي شيء.

- حسناً، هل تقتنعين إذا أخبرتك أنك عندما حضرت إلى هنا جئت على طائرة تابعة للخط الجوي الجديد بين بغداد وطهران، وأن الطيار كان شاباً ألمانياً اسمه شلاغل، وقد جاء بعد ذلك ليزوركم؟

فقالت بلهجة حزينة حائرة: نعم، هذا صحيح.

فقال السيد باين ببرود شديد: وكانت معك صديقتك أو مرافقتك التي ماتت.

- كانت مرافقتي.

- ماذا كان اسمها؟

- موريل كنغ.

- هل كنتِ تحبينها؟

- ماذا تقصد؟ لقد كانت إنسانة تنفعني.

- هل أصابك الحزن لوفاتها؟

فقالت بغضب: بالطبع. هل يجب الخوض في هذا؟ حسناً، أشكرك على حضورك. كم أتعابك؟

فتابع السيد باين بهدوء كأنه لم يسمعها: ومنذ ماتت لم يأتِ شلاغل لزيارتك، ولكن إذا حضر فهل تقابلينه؟

- بالطبع لا.

- حقاً؟

- لن أسمح له بدخول منزلي.

- لا أظن أنه يمكنك أن تقولي غير هذا.

فقالت بتردد على إثر جملته: ماذا تعني يا سيد باين؟

- هل كنتِ على علم بعلاقة الحب التي قامت بين شلاغل وموريل؟ وهل تعلمين أنه ما زال يحيا على ذكراها؟

فقالت بهمس: حقاً؟

- هل يمكن أن تصفيها لي؟

- أصفها؟! ماذا تعني؟

- بالتأكيد نظرتِ إليها وتعرفين شكلها.

- كانت جميلة.

- كم كان عمرها؟

- كانت في مثل سني تقريباً.

ثم قالت بعد تردد: لماذا تظن أن شلاغل كان يحب موريل؟

- هو أخبرني بهذا، وأخبرني أنه كان منزعجاً جداً بسبب طريقة موتها.

فقالت بحدة: هل تظنني قتلتها؟

فأجابها بهدوء: مطلقاً، ولهذا فمن الأفضل أن تعودي إلى وطنك وتُنهي هذه المسرحية.

- ماذا تعني بالمسرحية؟

- عزيزتي، لقد فقدتِ أعصابك تماماً لأنك كنتِ تخشَين الاتهام بالقتل، قتل سيدتك الليدي إستر.

فنظرت إليه الفتاة بذهول في حين أكمل هو: لقد عرفت قبل مجيئي إلى هنا أنك لست السيدة إستر، ولهذا فقد قمت باختبار بسيط حين كنت أقص عليك أخبار لندن، فكنتِ تتأثرين حين أذكر أخبار الشوارع والأسواق ولكنك لم تتأثري بالحديث عن المجتمعات أو سباق الخيل أو ما شابه ذلك، لأن هذا لا يعني شيئاً بالنسبة لك.

ثم أكمل بصوت أبوي: هيّا يا ابنتي، قصّي عليّ القصة كلها. صدّقيني، أنا أعلم أنك لم تقتلي الليدي إستر، ولكنك تخافين اتهامك بقتلها. هيّا، قصّي عليّ كل شيء.

فقالت باضطراب وسرعة بعد أن أخذت نفساً عميقاً: كنت في البداية أخاف منها لأنها كانت شبه مجنونة. لقد

تبعتها إلى هنا مسرورة كالبلهاء، وكانت على علاقة بسائق سيارة ولكن السائق تركها، ثم انكشف الأمر كله لأصدقائها وعائلتها فهربت لتعيش هنا. كانت تقوم بهدنة حتى تستعيد كرامتها المهدَرة بأن تنعزل فترة ما ثم تعود إلى وطنها.

التقطت أنفاسها ثم عادت تقول: ولكنها بدأت تتغير وتزداد جنوناً حين عرفت ذلك الطيار وتعلّقت به. لقد جاء هنا ليراني، ومن الواضح أنه أخبرها أنه يحبني، ولهذا انقلبت ضدي ببشاعة جعلتها تفقد عقلها كما يحدث مع أفراد عائلتها. وذات يوم واجهتها بعد أن لملمت أطراف شجاعتي التي تتناثر أمامها وقلت لها إنني أقوى منها ويمكنني إلقاؤها من الشرفة، فأصابها خوف شديد لأنها كانت تظنني مجرد حشرة تافهة، فتراجعت خطوتين إلى الوراء ثم سقطت من الشرفة.

كان انفعال موريل جارفاً حتى إنها دفنت وجهها بين كفّيها باكية، فقال السيد باين: اهدئي يا بنيّتي. ماذا حدث بعد ذلك؟

تنهدت بقوة ثم تابعت: ظننتهم سيتهمونني بالقتل، لم أظن أن أحداً سيصدّقني وخفت أن أُسجن في إيران. كنت قد علمت أن هناك قنصلاً بريطانياً جديداً قد حضر إلى إيران بدلاً من القديم الذي كان قد مات، فتولّيت أمر الخدم الذين كانوا يعدّونني والليدي إستر إنكليزيّتين مجنونتين، فأعطيتهم الكثير من المال وطلبت منهم استدعاء القنصل البريطاني الذي قابلته بشخصية الليدي إستر وأنا أرتدي خاتمها وثيابها. كان رجلاً ودوداً ولم يشكّ في الخدعة قَطّ، لكن بعد انتهاء الأمر

شعرت بندم شديد وبأنني مجنونة مثلها؛ فقد حكمت على نفسي بالبقاء في إيران إلى الأبد، وإذا اعترفت الآن فسوف أكون معرَّضة لتهمة القتل أكثر من ذي قبل. هل لك أن تخبرني بما يمكن أن أفعله؟

فوقف السيد باين وقال: كل ما هنالك أنك ستأتين معي الآن لمقابلة القنصل البريطاني، ذلك الرجل الودود، وسوف تتمّ بعض الإجراءات السخيفة. لا يمكنني أن أعدك أن الأمور ستتم بسهولة، ولكنك لن تُشنقي بتهمة القتل.

ثم قال لها عاقداً حاجبَيه: لماذا كانت صينية الفطور فوق جثة الليدي إستر؟

- لقد ألقيتها فوقها حتى أثبت أنها سقطت وهي تحملها. هل كنت غبية؟

- إطلاقاً، بل لقد كانت هذه هي النقطة الوحيدة التي جعلتني أحتار تماماً وأشك أنك قتلتِها، ولكن حين قابلتك أدركت أنك لا يمكن أن تقتلي أحداً.

- ألأنني لا أملك الجرأة الكافية؟

- بل لأن القتل ليس في طبعك. هيّا بنا لننهي تلك المهمة الشاقة. سأكون إلى جانبك ولن أتركك حتى تعودي إلى أرض الوطن. هل ستأتين معي؟

قالت بتردد: لن يصدقني أحد، ولا سيما عائلتها.

- اتركي هذا الأمر لي، فأنا أعرف الكثير عن هذه العائلة.

هيّا وكفى خوفاً، فهناك رجل معذَّب بسببك في طهران الآن ويجب أن تسافري إلى بغداد على طائرته. هيّا.

فابتسمت بخجل وقالت: حسناً، أنا مستعدّة.

ثم قالت وكأنها تذكّرت شيئاً: كيف عرفت أنني لست الليدي إستر كار قبل أن تراني كما قلتَ؟!

- بسبب حقيقة علمية.

- ماذا؟ أية حقيقة علمية؟

- الأمر ببساطة أن اللورد والليدي مايكل ديفر كانت أعينهم زرقاء، وقد أخبرني القنصل أن عينَي الليدي إستر بنّيّتان، والحقيقة العلمية تقول إن الأبوين ذوي الأعين البنّيّة يمكن أن ينجبا أبناء زُرق الأعين، ولكن العكس مستحيل؛ أي أن الأبوين ذوَي الأعين الزرقاء لا ينجبان أبناء أعينهم بنّيّة... مجرَّد حقيقة علمية.

- سيد باين، أنت رجل مدهش!

* * *

جريمة على ضفاف النيل

كان التوتر واضحاً على ملامح الليدي غريل منذ صعدت على سطح الباخرة المسماة «الفيوم». كانت تبدي غضبها وسخطها على كل شيء: المقصورة والشمس الحارقة بعد الظهر... وقد كان هذا كله من نصيب ابنة أخيها باميلا التي كانت تحاول أن ترضيها بكل الطرق، ولهذا فقد أعطتها مقصورتها. وعنّفت الآنسة إلسي ماكنوتون الممرضة التي أعطتها وشاحاً غير الذي كانت تريده ووضعت الوسادة الصغيرة في حقيبة السفر، كما عنّفت زوجها السير جورج ونعتته بالغباء لأنه أحضر لها سبحة غير التي كانت تريدها، فقال لها: عذراً يا عزيزتي، سأغيّرها حالاً. ما زال لدينا الوقت الكافي.

أما سكرتير زوجها فلم تعنّفه قَطّ لأن سحر ابتسامته كان يُخضع كل أسلحتها، في حين صبّت أكبر قدر من غضبها على دليلهم محمد الذي كان رجلاً وقوراً حسن الهيئة هادئ الطباع. وكان شخص غريب يجلس فوق مقعد قريب فقالت للدليل: لقد أخبرونا أننا سنكون المسافرين الوحيدين على ظهر السفينة.

- هذه صحيح يا سيدتي، لن يكون غيركم أنتم وهذا السيد.

- ولكن هذا خداع!

- هذا رجل في غاية الهدوء يا سيدتي.

- يا لك من مغفَّل! أين أنت يا آنسة ماكنوتون؟ ألم أطلب منك ألاّ تتركيني؟ خذيني إلى مقصورتي وأحضري لي حبة أسبرين؛ أنا أشعر بالإغماء بسبب غبائه.

كانت الآنسة إلسي ماكنوتون جميلة طويلة القامة في وسط العقد الرابع من عمرها. رافقت الليدي غريل إلى مقصورتها حيث رقدت الأخيرة ووضعت لها الآنسة إلسي ماكنوتون بعض الوسائد وراء ظهرها ثم ناولتها الأسبرين وبقيت معها تستمع لشكاواها.

كانت الليدي غريل في الثامنة والأربعين من عمرها، ومنذ شبابها كانت تشكو كثرة المال. تزوجت البارون الفقير جورج غريل وهي في الثامنة والثلاثين من عمرها. وكانت حسنة الملامح ضخمة الجسم مجعدة الوجه بسبب كثرة المساحيق حمراء الشعر، وكانت تضع الكثير من الحليّ. قالت للآنسة إلسي ماكنوتون: أخبري جورج بضرورة مغادرة هذا الراكب فوراً. يجب أن نكون وحدنا.

فخرجت إلسي من المقصورة لتجد المسافر الغريب كما كان على كرسيه مراقباً التلال الموجودة على الضفة الأخرى. كان السير جورج في الصالون وفي يده سبحة أخرى يتفحصها باهتمام، ولمّا أقبلت عليه سألها: هل تظنين أن هذه تفي بالغرض؟

- يا لها من سبحة جميلة!

- أتظنينها ستعجب غريل؟

- لا شيء يعجبها يا سيدي. لقد طلبت منّي أن أخبرك أنها تريد منك أن تجعل هذا المسافر يترك السفينة.

- وكيف يمكنني هذا؟ ماذا أقول له؟!

- أعلم أنه لا شيء بيدك. يمكنك أن تخبرها أنه لا شيء يمكن الآن، ومع الوقت ستعتاد هي الأمر.

- أتظنين هذا حقاً؟

- لا تقلق نفسك بمثل هذه الأمور يا سيدي. أنت تعلم أن تدهور صحتها هو السبب، فلا تحمّل الأمور ما لا تحتمل.

- أتعتقدين أن حالتها خطيرة؟

فأجابته بنبرة غريبة: نعم، حالتها تقلقني في الواقع، ولكن لا تُقلِق نفسك.

ثم رسمت ابتسامة مشجعة على وجهها وخرجت، في حين دخلت باميلا مرتدية رداء أبيض جميلاً وقالت وهي تشير إلى السبحة: يا لها من سبحة جميلة!

- شكراً يا حبيبتي، أنت مجامِلة. أتظنينها ستعجب عمتك؟

- عمتي لا يعجبها شيء. كثيراً ما أسأل نفسي عن سبب زواجك بها!

فتذكّر جورج ما كان في ماضيه وذكر لها ما كان من سباق خيول وديون، ثم تلك المرأة الثرية التي سيطرت عليه مقابل سداد ديونه، فقالت باميلا: يا لك من مسكين! ولكنها تفسد حياتنا.

- فقط منذ مرضت و...

- إنها ليست مريضة؛ فعندما تركتنا لزيارة أسوان كانت في نشاط ومرح الطيور. وأنا أشكّ في أن الآنسة ماكنوتون تعرف أنها تدّعي المرض.

- لست أدري كيف كنّا سنحيا دون الآنسة ماكنوتون!

- أظنها امرأة جيدة رغم أنني لست بدرجة إعجابك بها. أنت تراها مدهشة، وهي كذلك، ولكنها من الغموض بحيث لا يمكن لأحد معرفة ما في مخها. أفضل ما فيها أنها تستطيع التصرف مع تلك العجوز.

- لا تقولي هذا عن عمتك يا حبيبتي؛ إنها تحسن معاملتك على الأقل.

- إنها تسدد ديوني ولكنها تجعل الحياة جحيماً.

قال السير جورج مغيّراً مجرى الحديث: كيف سيكون التصرف مع شريكنا في الرحلة والذي تريده عمتك أن يتركنا؟

- لن تستطيع عمتي أن تفعل شيئاً؛ هذا الرجل يبدو

شديد الاحترام. اسمه باركر باين، وقد كان موظَّفاً في قسم السجلاّت. لكنني أظن أني سمعت اسمه من قبل!

في تلك اللحظة دخل السكرتير فقالت له باميلا: أين سمعت اسم باركر باين من قبل يا باسيل؟

- من إعلانات التايمز: «هل أنت سعيد؟ إذا لم تكن كذلك فاستشِر باركر باين».

- يا له من أمر ممتع! فلنجلس معه ونقصّ عليه مشكلاتنا. ما زال أمامنا وقت طويل قبل الوصول إلى القاهرة.

* * *

كانت حبات العرق تملأ جبين السيد باركر باين بعد زيارته لمعبد دندرة وركوب الحمار الذي أتعبه نظراً لكبر حجمه، وكان يبدل قميصه حين رأى رسالة فوق منضدة المقصورة ففتحها فكان فيها: «سيدي العزيز، أرجو أن تستغني عن زيارة معبد أبيدوس وتبقى على الباخرة؛ أريد استشارتك. آريان غريل».

فابتسم وهو يكتب ردّاً قال فيه: «سيدتي العزيزة، أنا أمضي عطلتي الآن ولا أقبل قضايا».

ثم وقّع الخطاب وأعطاه لخادم ليوصله لها. ولم يكَد يتمّ تغيير ملابسه حتى كان الخادم قد جاءه بالرد الذي كان فيه: «سيدي العزيز، يمكنني تقدير ظروفك، ويمكنني أيضاً دفع مئة جنيه نظير استشارة».

ففكر قليلاً. الرحلة شيء جميل ولكن مئة جنيه مبلغٌ مُغرٍ، خاصة وقد بدأت مصروفات الرحلة ترهقه. كتب يقول: «سيِّدتي العزيزة، وافقتك ولن أذهب إلى معبد أبيدوس. باركر باين».

* * *

أصيب الدليل محمد بالحزن عندما علم أن السيد باركر باين لن يزور معهم معبد أبيدوس، فحاول أن يقنعه بذلك ولكن باركر باين رفض تماماً. ولم تمضِ لحظات حتى كانت السيدة غريل تخرج من مقصورتها بعدَ رحيل الباقين إلى المعبد، وقالت للسيد باين: من الحكمة عدم الذهاب في هذه الرحلة؛ فإن الحرارة لا تُطاق! تَفضّل لنشرب الشاي في البهو.

تبعها بفضول. وقد بدا له أنه تلقى صعوبة شديدة في كيفية البدء في الموضوع، فبدأت تتكلم في مواضيع مختلفة حتى قالت وقد تغيرت نبرة صوتها: سيد باين، يجب أن يبقى حديثنا سراً.

- بالطبع يا سيدتي.

- أريد أن أعرف إن كان زوجي يسمّمني أم لا.

دُهِشَ السيد باين ممّا سمع، فقال بدهشة: يا له من اتهام خطير!

- أنا لست ساذجة ولا مراهقة. أنا أشك في حدوث

هذا منذ وقت طويل، وقد لاحظت أن شهيتي للطعام تزداد في أوقات غيابه وأشعر بتغيرات كثيرة في نفسي، وبالتأكيد هناك سبب ما لذلك.

- ولكنني لست رجل شرطة يا سيدتي، بل أنا خبير في العاطفة وأمورها و...

- وأنا لا أريد أن تتدخل الشرطة. أنا أعرف كيفية التصرف في الأمر وكيفية حماية نفسي، ولكنني أريد أن أتأكد من الأمر. سيد باين، أنا لست امرأة سيئة بل أنا أحسن معاملة من يحسنون معاملتي، كما أحسن معاملة زوجي، حيث دفعت كل ديونه ولم أبخل عليه يوماً بالمال.

وهنا شعر باين بالعطف على زوجها السير غريل في حين أكملت هي قائلة: أما الفتاة فلم أبخل عليها يوماً بما تريده من ثياب وحفلات... كل ما أريده هو أن يعترفوا بالجميل.

- الاعتراف بالجميل لا يلبّى بالطلب.

- هراء. حسناً، هذه هي المشكلة وعليك البحث عن الحقيقة، وفي اليوم الذي أعرفها فيه... حسناً، هذا شأني.

- لماذا أظنك غير صريحة معي بما يكفي يا سيدتي؟

- لقد أخبرتك بما أريد كشفه لي.

- ولكنك لم تخبريني بالسبب.

- أليس السبب واضحاً بما فيه الكفاية؟

– هناك نقطة واحدة أريد أن أعرفها: هل تريدين أن تكون هذه الشكوك في محلّها أم لا؟

فقامت من مقعدها قائلة بحنق: سيد باين، كيف تسمح...؟

فقاطعها قائلاً: ليس في هذا إجابة لسؤالي.

فانطلقت خارجة من المكان بسرعة وهي لا تجد ما تقوله له، فبقي وحده مكراً برهة حتى دخلت عليه الآنسة إلسي ماكنوتون فسألها بدهشة: لماذا عدتم بهذه السرعة؟!

– لقد عدت وحدي بعد أن أخبرتهم أنني مصابة بصداع. أين الليدي غريل؟

– أظنها في غرفتها.

– هذا أفضل؛ لا أريد أن تعرف بعودتي. لقد عدت للحديث معك.

دُهش باين لأنه كان يراها قادرة على معالجة مشكلاتها بنفسها دون معونة أحد، ولكن ظنه كان خطأ. قالت له: أنا أتابعك منذ وصلتَ وأراك واسع الخبرة صائب الرأي، وأنا أحتاج نصيحتك.

– عذراً يا سيدتي، ولكنني لا أراك من الطراز الذي يحتاج إلى النصيحة، بل أظنك تعتمدين على نفسك في كل شيء.

- ولكنني في ظرف غير طبيعي ومن الضروري أن أستشيرك. عندما تركت إنكلترا مصاحِبة لليدي غريل كانت في حالة جيدة...

وافقها بإيماءة من رأسه في حين أكملت: في أثناء عملي بالتمريض مرّت بي حالات مشابهة لليدي غريل التي كان سعيدة بمرضها الذي توهم نفسها به، وكان يجب ألاّ أخفف من تهويلها الأمر لنفسها. كنت أقوم بدوري في تمريضها وأحاول قدر الإمكان الراحة والاستمتاع.

- هذا حسن جداً.

- ولكن ما كانت تشكو منه السيدة غريل لم يعد وهماً، بل صار حقيقة!

- ماذا تعنين؟!

- بصراحة أنا أشكّ أن هناك من يقوم بدسّ السم لها.

- منذ متى يخالجك هذا الشك؟

- منذ نحو ثلاثة أسابيع.

- هل هناك شخص بعينه تشكّين فيه؟

فخفضت رأسها وقالت بلهجة وضح فيها عدم الصدق: لا.

- حسناً، سأخبرك أنا. أنتِ تشكّين في السير جورج غريل نفسه.

- لا، لا يمكن أن يفعل هذا. جورج كالطفل الصغير ولا يمكنه إيذاء أحد.

ثم استطردت قائلة: ولكنني لاحظت أن صحتها تتحسن كلما غاب، وحين يعود يعود معه تأثير المرض.

- أي نوع من التسمم تظنين؟ زرنيخ مثلاً؟

- زرنيخ أو ما يشبهه.

- وكيف تصرّفت حتّى الآن؟

- أحاول أن أراقب طعام الليدي غريل وشرابها بنفسي.

- هل تعتقدين أنها تشتبه في شيء؟

- إطلاقاً، لا يمكن أن تكون مشتبهة في أي شيء.

- أظنك على خطأ.

ظهرت على ملامحها الدهشةُ في حين أكمل هو قائلاً: الليدي غريل تستطيع كتمان أسرارها أكثر مما تعتقدين، وهي امرأة تستطيع تصريف شؤونها بشكل جيد.

- كم يدهشني ما تقول!

- هل تحبك الليدي غريل؟

- لم أفكر في هذا الأمر من قبل، ولكن...

قاطعها الدليل محمد قائلاً وهو يدخل البهو: لقد سمعت الليدي بعودتك وتريد منك أن تذهبي إليها، كما سألت عن

سبب عدم ذهابك إليها عند عودتك.

فقامت مسرعة وقام السيد باين وقال لها: هل يمكننا استكمال حديثنا في الصباح الباكر؟

- هذا أفضل وقت لأن السيدة غريل تنام حتى وقت متأخر.

ثم ذهبت بسرعة إلى الليدي غريل.

* * *

لم يرَ السيد باركر باين الليدي غريل حتى جاء موعد العَشاء، حين رآها تدخن سيجارة وتحرق ورقة كانت تبدو كخطاب، وكان يبدو أنها لا تزال غاضبة عليه لأنها لم تنظر نحوه. وبعد العَشاء لعب باين البريدج مع السير جورج وباميلا وباسيل، ولكن الجميع كانوا يبدون مشتَّتين فانتهى اللعب باكراً.

بعد ساعات قليلة فوجئ باركر باين بمحمد يوقظه قائلاً: الليدي غريل مريضة جداً والممرضة قلقة عليها بشدة. سأعمل على إحضار طبيب بسرعة.

أبدل السيد باين ملابسه سريعاً وذهب إلى كابينة الليدي غريل في الوقت الذي وصل فيه باسيل. كان السير جورج وباميلا في مقصورة الليدي غريل وكانت ماكنوتون منهمكة في الاهتمام بمريضتها، وعندما وصل السيد باين كان من الواضح أن الليدي غريل تُحتضر، حيث ظهرت تقلصات

كثيرة على جسدها، ثم تصلّب جسمها مرة واحدة ثم ارتخى تماماً على السرير.

كان من الواضح أنها فارقت الحياة، فأمسك السيد باين باميلا التي كانت على وشك البكاء من ذراعها واتجه معها خارج المقصورة. قالت له بوجل: هل... هل...

- أخشى أنها قد ماتت بالفعل يا ابنتي.

ثم تركها مع باسيل في الوقت الذي خرج فيه السير جورج من المقصورة زائغ البصر قائلاً: يا إلهي! لم أظنها مريضة بالفعل قط!

ثم دخل السيد باين إلى المقصورة ليجد الآنسة إلسي وقد شحب وجهها وازداد بياضه، وسألته إن كانوا قد أرسلوا في استدعاء طبيب فقال: نعم. هل تظنينه تسمم ستريكنين؟

- تقلصاتها تدل على هذا. لا يمكنني تصديق الأمر!

ثم انخرطت في بكاء شديد جعل السيد باين يربت على كتفيها لحظات. وفجأة تبادرت إلى ذهنه فكرة، فخرج من المقصورة بسرعة إلى البهو حيث وجد في منفضة السجائر جزءاً صغيراً من الورقة التي كانت الليدي غريل تحرقها، ولم يكن ذلك الجزء قد احترق تماماً فظهرت عليه بضع كلمات هي «... قرص الأحلام... احرقي هذا...» فقال السيد باركر باين: تُرى ما معنى هذا؟

* * *

جلس السيد باين مع أحد أصدقائه في القاهرة وقصّ عليه ما حدث، فقال له صديقه: أتعني أن هذا هو الدليل؟

-نعم، ومن الواضح أن السير جورج كان مغفلاً. لقد طلبت الليدي غريل كوباً من الكاكاو جهزته لها الممرضة، ثم طلبت الشيري ليضاف إليه، وقد أحضره لها السير جورج، وماتت بعد نحو ساعتين بسمّ الستركنين، وقد وجدنا لفافة من الستركنين في مقصورة السير جورج ووجدنا أخرى في جيب سترته التي كان يرتديها.

- ومن أين جاء بالستركنين؟

- لست أدري على وجه الدقة، ولكن الممرضة كانت تمتلك بعضاً منه من أجل علاج الليدي غريل في الوقت المناسب، وحين سألتها قالت مرة إن كمية الستركنين لم تنقص ثم عادت لتقول إنها نقصت. من الغريب ألاّ تكون مثل هذه المرأة متأكدة ممّا لديها.

- أظنهما كانا متفقَين على المؤامرة؛ أظن أن بينهما علاقة ما.

- ربما، ولكنها كانت تستطيع القيام بهذا بشكل أفضل؛ فهي على قدر كبير من الذكاء.

- أظن الموقف من الوضوح بحيث يشير إلى تورّط السير جورج بشكل تامّ في القضية.

- لا أدري، سوف أرى ما يمكن أن أفعله. بصراحة أنا

أرى أنه لا يمكن أن يكون السير جورج هو القاتل.

* * *

كان وجه باميلا شاحباً وهي تواجه السيد باين الذي سألها: من قتلها إذن؟

فقالت وهي تقترب منه: أظنها قتلت نفسها. لقد كانت غريبة التصرفات في الفترة الأخيرة وكانت تتخيل أشياء غريبة.

- أي أشياء تعنين؟

- مثلاً كانت تلمّح إلى أن باسيل يحبها، بالرغم من أنني وباسيل...

- حسناً، لقد لاحظت.

- كان كل هذا في مخيلتها، وشاءت الانتقام من جورج المسكين، ولهذا فقد ألّفت تلك القصة التي قصّتها عليك ووضعت السم في مقصورته وجيبه وقامت بتسميم نفسها، وأنت تعلم أنه قد حدث مثل هذه الحوادث من قبل.

- أعلم ذلك، لكني أرى أن الليدي غريل لم تكن من النوع الذي يمكن أن ينتحر.

- وماذا عن تلك الأوهام والتخيّلات؟

- أريد سؤال السيد وست عن مسألة التخيلات تلك.

* * *

كان السيد وست في غرفته، وقد سأله السيد باين فأجاب: لست أريد التباهي ولكنها كانت تحبني حقاً، وأنا لم أجرؤ على إخبارها بما بيني وبين باميلا إذ كان يمكنها أن تأمر زوجها بفصلي.

- هل ترى نظرية باميلا سليمة؟

فقال بصوت فيه الكثير من الشك: أراها محتمَلة.

- ولكن هذا لا يكفي. علينا إيجاد حل يقنع به العقل، وأعتقد أن خير وسيلة لهذا هي الاعتراف.

ثم أخرج ورقة وقلماً من جيبه وقال: فلتكتب الاعتراف بنفسك يا عزيزي.

فقال باسيل بدهشة وفزع: ماذا تعني بالله عليك؟!

فأجابه السيد باين: إنني على علم بكل شيء؛ فأنا أعلم أنك كنت على علاقة بها وأنها بدأت تشك فيك وأنك أحببت باميلا الصغيرة الفقيرة، وأعلم أيضاً عن تلك المؤامرة التي دبّرتَها عن طريق التسميم البطيء. كان من الممكن أن تمضي وفاتها على أنها اضطراب عاديّ في الأمعاء، وإذا لم يفلح الأمر بهذه الطريقة فإنه يمكن توريط السير جورج في تلك التهمة، خاصة وأنك كنت تدبّر الأمر بحيث يكون وقت حدوث الأزمات في وقت وجوده.

صمت قليلاً وهو يتأمل وجه باسيل ثم قال: ولكنك علمت أنها أخبرتني بشكوكها فاضطُررتَ إلى سرعة التصرف،

فسرقت سم الستركنين من الآنسة ماكنوتون لتضع بعضه في كابينة السير جورج والبعض الآخَر في جيب سترته، ثم أرسلت لها الباقي في قرص أسميته «قرص الأحلام». يا لها من فكرة عاطفية! لقد تناولَت القرص بمجرّد خروج الممرضة من عندها، وبالطبع كنتَ تعلم أنها لن تخبر أحداً بالأمر. لكنك أخطأت باعتمادك على طلبك منها أن تحرق الخطاب، فلا هي ولا غيرها من النساء سيحرقن أي خطاب أبداً. لديّ الآن كل خطاباتك بما فيها الخطاب الذي كان فيه قرص الأحلام.

كان وجه باسيل قد استحال أسود من المفاجأة والذهول، وقال وهو يكاد يسقط على قدميه: عليك اللعنة! أنت بالفعل تعرف كل شيء!

ثم حاول أن يهاجمه، ولم ينقذه منه سوى دخول شهود العيان الذين كان السيد باين قد أحضرهم معه احتياطياً وجعلهم يقفون وراء الباب ليستمعوا إلى اعتراف باسيل.

* * *

جلس السيد باين يناقش القضية مرة أخرى مع صديقه في القاهرة فقال: لم أكن أملك دليلاً سوى ذلك الخطاب المحترق، وقد كوّنت في ذهني نظرية تعتمد على تخيّل كامل لما حدث، فجربت خداعه من خلال ما قرأته في بقايا الخطاب المحترق، وكنت أعلم أنه لم يعلم أن الليدي غريل قد أحرقت الخطاب.

ثم التقط أنفاسه وهو يقول: يا لها من امرأة غريبة! كل ما كانت تريد أن أقوله لها عند استشارتها لي هو أن زوجها كان يحاول قتلها بالسم حتى تهجره مع باسيل، ولكنها كانت تريد التأكّد أولاً.

- لن يتعذب أحد مثل باميلا الصغيرة!

- أظنها ستتغلب على آلامها سريعاً؛ فهي صغيرة السن. كل ما أتمنى أن يحدث هو أن يستطيع السير جورج أن يهنأ في حياته وقتاً ما قبل أن يتقدم عمره. لقد عانى من المعاملة السيئة طوال السنوات العشر الماضية، وأظن أن الآنسة إلسي ماكنوتون يمكنها أن تحقق له هذا.

ثم تنهد بارتياح وقال: أظنني سأسافر إلى اليونان متنكراً حتى يمكنني التمتّع بعطلتي.

* * *

مشكلة في دلفي

لم تكن السيدة بيترز معجَبة باليونان، حتى إن مدينة دلفي لم تكن تمثّل لها أية متعة أو اهتمام بل كانت تتطلع إلى زيارة باريس ولندن والريفييرا. كانت تحب الفنادق الفاخرة بأثاثها الفاخر، وهذا ما لم يكن موجوداً في فندق دلفي. كان المنظر من نافذة الغرفة رائعاً وكانت الغرفة نظيفة والفراش مرتَّباً، وكان في الغرفة كرسي ومكان بسيط للاغتسال وصوان ملابس، والماء لم يكن ساخناً باستمرار، وكان الحمّام يتمّ إعداده في الغرفة إذا طلب النزيل ذلك.

كان يسعدها أن تقول إنها زارت دلفي وإنها حاولت هناك أن تهتم بالتراث الإغريقي القديم، ولكن كان الأمر صعباً عليها لأن التماثيل كانت تنقصها الرؤوس أحياناً والأذرع أحياناً أخرى، ولكنها لم تكن تريد أن تصرح بذلك أمام ابنها ويلارد حتى لا يسخر منها.

كانت في اليونان من أجل ابنها ويلارد، وكانت تتحمل تلك الغرفة غير المريحة والخادمة متجهمة الوجه والسائق الكريه من أجل ابنها. كان ابنها ويلارد في الثامنة والعشرين من عمره وكانت تحبه حباً عظيماً، وكان هو شديد الحب للفن القديم. كان شاباً نحيلاً ضعيف النظر، وكان قد أجبر أمه بحبها له على أن تصحبه في تلك الجولة إلى اليونان.

لقد أعجبها معبد البارثنون إلى حد ما ولكنها لم تكن ترى أن أثينا مدينة جميلة، في حين كانت زيارة ميسينا بالنسبة لها عذاباً شديداً. وفي النهاية كانت دلفي هي القشة التي قصمت ظهر البعير؛ لم يكن فيها من شيء سوى المشي ومشاهدة الحطام والأطلال الباقية من حضارتها البائدة، وكان ابنها ويلارد يجثو على ركبتيه ليقرأ النقوش اليونانية على الآثار ثم يصيح فرحاً وهو يشرح لأمه معنى ما قرأه، في حين كانت هي ترى هذا منه منتهى البلاهة.

وفي ذات صباح طلبت منه أن يذهب وحده لأنها كانت تريد أن تبقى لترى بعض النقوش البيزنطية، فقال لها: أنا أعرف أنك تريدين أن تبقي وحدك لتتأملي المسرح القديم وتُشبِعي نظرك من النظر إليه.

- بالضبط يا ولدي العزيز.

- حسناً، لقد كنت على يقين من أنك ستُعجبين به.

ثم تركها بادي السعادة في حين اتجهت هي لتناوُل فطورها. ولم يكن في مطعم الفندق سوى أربعة أشخاص: أم وابنتها ترتديان ملابس غريبة الشكل وتتكلمان عن الرقص التعبيري، ورجل بدين اسمه تومسون كانت قد رأته حين حمل حقيبتها في أثناء مغادرتها قطار دلفي، ورجل في منتصف عمره بدين أصلع الرأس كان قد وصل إلى الفندق في الليلة السابقة، وكان هو آخِر من بقي في المطعم. وقد بقي يتجاذب معها أطراف الحديث، وكانت هي امرأة لطيفة

تحب الحديث إلى الناس، ولأن السيد تومسون كان شديد التحفظ غير مشجع على الحديث في حين كانت المرأة وابنتها متعجرفتَين، فقد بقيت تتحدث مع ذلك الوافد الجديد الذي لم تعرف اسمه. كان ذا شخصية جذابة واسع الإدراك غير متكبر، وكان يحدّثها عن الإغريق القدامى بشكل سلس عذب حتى إنه جعلها تحبهم، في حين قصّت هي عليه قصة ابنها ويلارد وذكائه وسعيه وراء الثقافة.

كانت تشعر أن هناك شيئاً ما في ذلك الرجل الذي جعل الحديث عذباً سلساً، ولكنها لم تكن تعرف عنه شيئاً، وكل ما كانت تعرفه أنه كانت في رحلة ترفيهية ولم يخبرها عن نفسه بأكثر من هذا.

ومضى يومها سريعاً جداً، وقد بقيت الأم وابنتها والسيد تومسون بعيدين عنها. حتى إنها كانت برفقة صديقها الجديد حين قابلا السيد تومسون خارجاً من المتحف، ولكنه نظر بعيداً عنهما وأسرع يبتعد، فنظر إليه رفيقها بدهشة قائلاً: مَن تُراه هذا الرجل؟!

- اسمه تومسون، وهذا كل ما أعرفه عنه.

- لا أظنّني قابلته من قبل، ولكن وجهه مألوف لي!

* * *

بعد الظهر انتقت السيدة بيترز مكاناً ظليلاً لتستريح فيه قليلاً وهي تقرأ كتاباً عن شيء غير الفن الإغريقي الذي

كان ابنها يعطيها كتباً كثيرة عنه لتقرأها، وكان عنوان الكتاب «المركب النهري»، وقد كان يتحدث عن أربع جرائم قتل وثلاث حوادث اختطاف وعصابة خطيرة من المجرمين. كانت السيدة بيترز تستمتع بالرواية استمتاعاً شديداً.

وفي الرابعة عصراً عادت إلى غرفتها في الفندق وهي تتوقع أن يكون ابنها قد عاد من جولته، وكانت سعيدة بادية المرح خالية البال من أي شيء يمكن أن يعكر صفوها حتى إنها لم تهتم بقراءة تلك الرسالة التي سلّمها لها صاحب الفندق والذي قال لها إن شخصاً غريباً طلب منه تسليمها لها.

كانت ورقة الرسالة بالية. وحين فتحتها السيدة بيترز وقرأت أول سطرين فيها شحب وجهها وارتعش جسدها وبدا أنها تكاد تسقط أرضاً! كانت الرسالة مكتوبة باللغة الإنكليزية، ولكن كان من الواضح أن كاتبها كان أجنبياً. كان نَصّ الرسالة يقول: «سيدتي، يجب أن تعلمي أن ابنك رهينة لدينا الآن، وهو في مأمن ولن يضره شيء إذا فعلت ما نأمرك به. نطلب منك فدية مقدارها عشرة آلاف جنيه إسترليني. حذار أن تنطقي بشيء لصاحب الفندق أو لرجال الشرطة أو أي مخلوق. إذا بدر منك ما يشير إلى ذلك فسوف يموت ابنك مباشرة. غداً ستصلك ورقة فيها تعليمات خاصة بطريقة دفع المبلغ، وإذا لم تتّبعي تلك التعليمات فسوف نرسل لك رسالة جميلة فيها أُذُنا ابنك العزيز، وإذا لم يُدفع المبلغ في اليوم التالي فسوف نقتله فوراً، وهذا ليس مجرد تهديد. عليك أن تفكّري جيداً وتلتزمي الصمت التام».

وكان الخطاب مذيَّلاً بتوقيع «ديمتريوس ذي الحاجب الأسود».

كانت حالة السيدة بيترز يُرثى لها، فعلى الرغم من أن طريقة كتابة الرسالة كانت بدائية جداً إلاّ أنها كانت مخيفة مرعبة. كيف يمكن أن تتخيل أن يحدث هذا لابنها ويلارد المثقف المهذب؟! كادت تتصل بالشرطة، ولكنها تراجعت فوراً حين تذكّرت التهديد الوارد في الرسالة.

ثم خرجت من غرفتها واتجهت مباشرة إلى صاحب الفندق، وهو الوحيد الذي كان في الفندق يتحدث الإنكليزية، وقالت له بلهفة: لم يعُد ابني حتى الآن وقد تأخر الوقت!

فقال الرجل ضاحكاً بمرح: لقد رفض ابنك ركوب البغلة وفضّل السير على رجليه. ربّما تلكّأ قليلاً في طريقه.

- هل توجد عصابات في هذه البلاد؟

- لا يا سيدتي، كل أهل دلفي طيبون ويحبون الأجانب.

وكادت تعترف له بما حدث وبأمر الرسالة التي وصلتها، ولكنها خافت أن ينفّذ رجال العصابة تهديدهم فأطبقت فمها على لسانها. لقد كانت لها صديقة أمريكية قام البعض باختطاف طفلها وبمجرد إبلاغها الشرطة قام المختطفون بقتل الطفل. لم تكُن تدري ماذا يمكن أن تفعل! لقد كانت سلامة ابنها عندها تساوي الدنيا وما فيها، ولكن من أين لها مثل هذا المبلغ

الذي يطلبونه؟! كان كل ما لديها خطاب ضمان يساوي بضعة مئات من الجنيهات، وسوف تواجه صعوبات كثيرة من أجل الحصول على مثل هذا المبلغ، فهل سيقدّرون هذه الظروف؟ وهل من الممكن أن ينتظروا حتى يمكنها تدبير المبلغ؟

جاءتها خادمة الفندق فطردتها بعنف وعصبية، وعندما انطلق جرس العَشاء اتجهت وحدها إلى مطعم الفندق، وهناك أكلت وحدها دون أن تنظر إلى أي شخص وكأنها وحدها في المكان. وعند تقديم الفاكهة فوجئت برسالة أخرى موجودة فوق صينية الفاكهة، وكانت مكتوبة بخط مختلف عن خط الرسالة السابقة. كان خطّاً إنكليزياً أنيقاً، ولهذا فقد فتحت الرسالة دون اهتمام، ولكن محتويات الرسالة كانت عجيبة؛ كان مكتوباً فيها: «لم يعد من الممكن أن تستشيري آلهة الإغريق في دلفي، ولكن يمكنك استشارة السيد باركر باين»، وكان مع الرسالة قصاصة صغيرة من صحيفة فيها إعلان السيد باين، وفي أسفل الورقة كانت صورة صديقها الأصلع.

قرأت الإعلان مرتين متتاليتين: «هل أنتِ سعيدة؟ إذا لم تكوني كذلك فاستشيري باركر باين». وقد رأت في تلك الورقة النجدة الوحيدة مما هي فيه، فأخرجت ورقة صغيرة كتبت عليها رسالة للسيد باركر باين ترجوه فيها أن يقابلها خارج الفندق بعد عشر دقائق وأرسلتها مع الخادم إليه.

وبعد عشر دقائق كانت تخرج من الفندق لتجده ينتظرها في الخارج في برد المساء فقالت له: سيد باين، لم أتمنّ شيئاً أكثر

من أن أقابلك الآن! ولكن كيف عرفت أنني في مشكلة؟!

- مجرد تخمين. أريد الآن أن أعرف كل شيء.

قصّت عليه الأمر كله ثم أعطته الرسالة ليقرأها على ضوء مصباح يدوي صغير كان معه، فلم يلبث أن قال: إنها رسالة عجيبة بالفعل، ولكن هناك بعض الملاحظات.

- ماذا تستطيع أن تفعل بخصوص ابني ويلارد؟

قال يطمئنها: لا تقلقي هكذا. سيحافظ عليه اللصوص لأنه بالنسبة لهم مبلغ كبير من المال.

وهكذا بدأت السيدة بيترز تهدأ شيئاً فشيئاً ثم قالت: وماذا عليّ أن أفعل الآن؟

- عليك الانتظار للغد، إلاّ إذا كنتِ تريدين إبلاغ الشرطة.

فصرخت قائلة: كلاّ، سيُقتَل ويلارد إذا أبلغت الشرطة.

ثم سألته بلهفة: هل تظنه سيعود سالماً؟

فقال بهدوء: بالتأكيد، ولكن المشكلة أننا نريده أن يعود دون دفع الفدية.

- أنا لا أريد سوى ابني.

- أعلم يا سيدتي. ولكن من أعطاك هذه الرسالة؟

- لقد أخبرني صاحب الفندق أن شخصاً غريباً أعطاها

له وطلب منه توصيلها لي.

- حسناً، من الممكن أن نتتبع من سيأتي بالرسالة غداً. ولكن كيف ستفسرين غياب ابنك عن الفندق؟

- لست أدري! لم أفكر في هذه النقطة قَط.

- يمكنك أن تَبدي منزعجة لغيابه وسوف تُرسَل فرقة للبحث عنه، ولن يفعل المختطفون شيئاً ما دمت لم تذكري شيئاً عن الاختطاف والتهديد والفدية. مهما كان الأمر فهم لا يتوقعون أن تتقبلي مسألة اختفاء ابنك هكذا ببساطة.

- أيمكن أن أترك الأمر كله لك وتحت تصرفك؟

- لا تقلقي يا سيدتي. هذه مهنتي.

ثم تركها واستدار ليرجع إلى الفندق، ولكنه كاد يصطدم بشخص في الظلام فقال: من هذا؟

فقالت: أظنه تومسون.

- تومسون!

* * *

بقيت السيدة بيترز في غرفتها تفكر فيما قاله لها صديقها. كان ما قاله صواباً؛ فالذي سيُحضر الرسالة في الغد له علاقة بالمختطفين بالتأكيد. استراحت لهذه الفكرة مما جعلها تستغرق في النوم أسرع مما تخيلت.

حينما كانت ترتدي ملابسها في الصباح وجدت خطاباً

بجانب النافذة فأصابتها رعدة قوية. كانت الرسالة من نفس نوع الورق وبنفس الخط اللذين كانت عليهما الرسالة السابقة، وكان مكتوباً بها: «هل فكّرت؟ ما زال ابنك بخير إلى الآن. نحن نعلم أنه من الصعب عليك أن تدبّري مثل هذا المبلغ، ولكننا علمنا أنك تملكين عقداً من اللؤلؤ ويمكننا الاكتفاء به بدلاً من النقود. كل ما عليك أن تفعليه هو أن تُحضِري أنت أو أي شخص تختارينه العقد إلى ملعب المدينة، وهناك يصعد الذي يحضر عند شجرة هناك بجانب صخرة كبيرة. بالطبع سيكون المكان مراقَباً وسيكون الحاضر مراقَباً أيضاً للتأكد من أنه حضر بمفرده، وفي المكان المحدَّد سوف تتم عملية التبادل غداً في السادسة صباحاً. إذا أبلغت الشرطة فسوف يُطلق الرصاص على ابنك وأنتما في الطريق إلى المحطة. هذه آخِر رسائلنا إليك، وفي حالة عدم حصولنا على العقد غداً فسوف نرسل لك أُذُنَي ابنك ثم نقتله في اليوم التالي. مع تحياتي، ديمتريوس».

انطلقت السيدة بيترز إلى صديقها وأعطته الرسالة فقرأها ثم قال: هل ما يقولونه بخصوص العقد صحيح؟

- نعم. لقد دفع فيه زوجي مئة ألف دولار.

فقال هامساً: إذن فهم على علم تام بكل شيء.

- ماذا تقول؟ لست أسمعك.

- لا شيء، كنت أتدارس الأمر.

- لا وقت لدينا للتدارس. أريد ابني، أريده حياً.

- سيدة بيترز، أنت امرأة شجاعة، فهل ستدعينهم يخدعونك ويتحكمون فيك؟ هل تستسلمين لهم؟

- لا، سأرسل الشرطة خلفهم بمجرد استعادة ابني، ويمكنني استئجار عربة مصفحة تحملنا إلى المحطة.

- ولكنهم على علم بأنك من الممكن أن تفعلي كل هذا، وبالتأكيد لديهم احتياطاتهم.

- ماذا نفعل إذن؟

- لديّ خطة صغيرة. لي صديق في أثينا وهو خبير في الجواهر ومتمكن في تقليدها، ويمكنني استدعاؤه ومعه مجموعة من الجواهر المقلَّدة لاستبدال المزيَّفة بلآلئ العقد.

فقالت بإعجاب شديد: يا لها من فكرة!

- لا ترفعي صوتك. عليك مهمة أخرى.

- ما هي؟

- سأستعمل هاتف مكتب المدير وعليك مراقبة الطريق حتى لا يقترب أحد من مجال السمع.

كانا وحدهما في المطعم في ذلك الوقت، فاتجه إلى غرفة المدير واستأذنه في استعمال الهاتف، فلمّا أذن له المدير وساعده في طلب الرقم خرج وتركه واحد، وفي أثناء خروجه أخبرته السيدة أنها تنتظر السيد باين لأنهما في طريقهما لنزهة في المدينة.

كان تومسون في الردهة في ذلك الوقت فاقترب منهما ليسأل المدير عن إمكانية استئجار فيلاّ في دلفي، فأخبره المدير أن هناك فيلاّ ملك رجل يونانيّ ولكنه لا يؤجرها، وهناك فيلاّ أخرى ملك امرأة أمريكية في طرف القرية وقد كانت مغلقة في ذلك الوقت، وهناك فيلاّ أخرى ملك فنان إنكليزي على الصخرة المطلة على إيتيا.

وهنا تدخّلت السيدة بيترز في الحديث بصوتها العالي لتقول: شيء رائع أن يملك المرء فيلاّ في هذه المدينة لأن فيها أماكن ساحرة، أليس كذلك يا سيد تومسون؟ أنت بالتأكيد توافقني على هذا الرأي بدليل أنك تبحث عن فيلا. هل هذه أولى زياراتك إلى دلفي؟

وبقيت تتحدث بذلك الصوت العالي حتى أنهى السيد صديقها مكالمته وخرج مبتسماً، فخرج السيد تومسون ببطء لينضم في الطريق إلى تلك السيدة المتكبرة وابنتها.

* * *

مضى الأمر بشكل مرض؛ وصل خبير الجواهر قبل العَشاء في سيارة يملؤها السائحون، فذهبت السيدة بيترز لتقابله في غرفة صديقها البدين ومعها العقد، وهناك بعد تعارفهما قال لها: يمكنك أن تثقي في نجاح العمل.

في تمام الحادية عشرة مساء كان صديقها البدين يدخل غرفتها ومعه كيس بنّي صغير فقالت: جواهري!

فقالت لها مشيراً بيده: لا ترفعي صوتك. هذا هو العقد المزيَّف. إنه شديد الإتقان، أليس كذلك؟

فتأملت العقد ثم قالت بدهشة: مدهش! ولكن ألا تظنهم سيشكّون في الأمر؟

- لا أظن ذلك؛ فالعقد معك وسوف تسلمينه لهم، فكيف يمكنهم أن يدركوا أنك تخدعينهم؟

فردّت العقد إليه قائلة: سيد باين، ألا يمكن أن تحمل أنت العقد إليهم، أم أنني بهذا أطلب منك فوق طاقتك؟

- بل يمكنني هذا بالتأكيد، ولكن أعطيني تلك الرسالة لأحفظ ما فيها من تعليمات. يمكنك أن تستغرقي في النوم ولنأمل في أن يتناول ابنك إفطاره معك في الصباح.

- ليتني أصدق هذا.

* * *

لم تستطع النوم جيداً بل كانت هناك أحلام مزعجة تراودها طوال الليل. رأت اللصوص يركبون سيارات مصفحة ويطلقون النار على ابنها ويلارد وهو يعدو فوق سفح جبل مرتدياً مَنامته. ثم هبّت من نومها فزعة وبقيت مستيقظة حتى الصباح. وفي تمام السابعة صباحاً سمع صوت دقّات على بابها فأذنت للطارق بالدخول فإذا به السيد تومسون! فنظرت إليه ذاهلة في حين قال هو بصوت هادئ: صباح الخير يا سيدتي.

فقالت فزعة: كيف تسمح لنفسك أن...

فقاطعها بهدوء: أرجو أن تغفري لي هذه الزيارة يا سيدتي لأن وقتها غير مناسب، ولكن كان لا بدّ من إتمامها.

فنظرت إليه بعينين تكادان تشتغلان غضباً وقالت: أنت إذن الذي اختطفت ابني ولم يكن هناك أي لصوص؟

- بالطبع لم يكن هناك لصوص؛ لقد كانت حيلة لا تنطلي على أحد.

فقالت بغضب متزايد: أين ابني؟ أين هو؟

قال السيد تومسون بنفس الهدوء: إنه أمام باب غرفتك.

وفي تلك اللحظة دخل ويلارد وقد بدا على وجهه الشحوب وكانت ذقنه غير حليقة، فانطلقت أمه نحوه وأخذته بين ذراعيها ثم قالت للسيد تومسون: أمّا أنت فلن أتركك حتى أسلّمك للشرطة.

فقال ويلارد مشيراً لها: لا يا أمي، هذا هو الرجل الذي أنقذني.

فسألته بدهشة: وأين كنتَ أنت؟

- كنت في منزل فوق الصخرة، وهو على بعد ميل واحد من هنا.

وهنا قال السيد تومسون وهو يناولها لفافة قماشية:

اسمحي لي أولاً أن أعيد إليك ما يخصّك. لا تحتفظي بالكيس الآخَر فليس فيه سوى العقد المقلَّد. إن أرستوبولس في غاية المهارة كما أخبرك صديقك.

فقالت بدهشة كبيرة: أنا لا أفهم شيئاً!

فقال لها: سيدتي، سوف أشرح لك كل شيء. لقد لفت انتباهي منذ البداية استخدام اسم معيَّن، ولهذا كنت أتتبعك أنت صديقك وأستمع إلى حديثكما الشيق، وقد وجدت الأمر مهماً ويستحق الاهتمام حتى إني أخبرت مدير الفندق به سراً، ولهذا فقد كتب رقم الهاتف الذي طلبه صديقك، كما طلب من أحد الخدم الاستماع إلى حديثكما في المطعم، وهنا عرفت كل شيء. لقد كنتِ ضحية لاثنين من عتاة سرقة الجواهر، وقد كانا على علم بكل شيء عن العقد ولهذا فقد تتبّعاك إلى هنا وقاما باختطاف ابنك، ثم كتبا تلك الرسالة التافهة ودبّرا الأمر بحيث تبقين تفكرين طوال الوقت في الرأس المدبّر. بعد ذلك كان كل شيء سهلاً، فيسلّمك صديقك المحترَم كيساً فيه لآلئ مقلَّدة ثم يهرب مع زميله، وغياب صديقك سيجعلك تعتقدين أنهم اختطفوه هو الآخَر، وأظنهم قد بنوا خطتهم على أساس أن يذهب شخص ما إلى الفيلاّ في الغد فيعثر على ابنك، وحين تُدرَك الحقيقة يكونان قد ابتعدا عن الأعيُن تماماً.

- ولكن ماذا فعلا؟

- لقد تدبّرت أمر القبض عليهما.

- يا لهذا الوغد الحقير باركر باين!

فقال السيد تومسون: أجل، أظنه رجلاً منعدم الأخلاق.

وسأله ويلارد بإعجاب: ولكن كيف انتبهت إلى الأمر منذ البداية؟ ما هو ذلك الاسم المعيَّن الذي سمعته؟

- من العجيب أن يسافر المرء متخفياً ثم يسمع اسمه، أليس كذلك؟

قالت السيدة بيترز وهي تنظر إليه بدهشة: ولكن من أنت يا سيد تومسون؟

فقال مبتسماً: أنا السيد باركر باين يا سيدتي.

* * *

المحتويات

جندي يعاني الملل ٥
قصة كاتب صغير ٢٩
قضية المرأة الحزينة ٤٧
هل تملك كل ما تتمنّى؟ ٦٣
باب بغداد ٧٩
منزل في شيراز ٩٩
جريمة على ضفاف النيل ١١٥
مشكلة في دلفي ١٣٥